@ketab_n
Follow Me
9.5.2016

محسن الرملي

تَمْرُ الأَصابعِ

روايــة

محسن الرملي

تَمْر الأصابع

رواية

Twitter: @ketab_n

تَمْر الأصابع

Twitter: @ketab_n

رواية

المؤلف: محسن الرملي
عنوان الكتاب: ثَمْر الأصابع
لوحة الغلاف: قحطان الأمين
الناشر: دار المدى
الطبعة الرابعة: 2015

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 آيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

Twitter: @ketab_n

إهـــداء ..

.. إلى العراق، مهد طفولتي ومهد الحضارات

.. إلى إسبانيا محطتي للسلام بعد طريقي المكتظ بالحروب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- ١ -

مـا كنتُ لأكتب قصـة أهلي وأفضحهم لـولا تشجيع أبي لي وهو يحلق شـعر رأسـي في مرقصـه المدريدي، قائلاً: «اكتب ما تشـاء فلن يحدث أسـوأ مما حـدث.. هذا العـالم جايف». لم أعلـق على قوله، لحظتها، مكتفياً بمواصـلة استشـعاري لشفرته وهي تكاد تجلط الجلدة خلف أذني.

بـدأت الحكاية يوم اصـطحب أبي نـوح أختي إستبرق إلى أطباء المدينة لتُعالَج من مرض أذبلها وجعلها تتغوط في ثيابها سـائلاً أصفر، و لم تنفعها مداومتها على أكل مسـحوق الخرنوب الذي وصـفته لها الحكيمـات مـن العجائز، فنحل جسـدها وارتخـى نهداها وهي في الرابعة عشرة من العمر، صـارت شـاحبة صـفراء مثـل أوراق التبغ، لكنها بدت أجمل من مجايلاتها القرويات، لأنها احتجبت عن شمس الحقول التي تصـبغ الوجوه بلون الخشب القديم. لم تكن أمي لتكلفها بأعمال صعبة في المزرعة، فتكتفي بفعل أشياء بسيطة في البيت كترتيب الأسِرَّة وغسل المواعين وكنس الدار ونشر الملابس. لقد ولِدت إستبرق توءماً مع أخت أخرى اسـمها سـندس ماتت بعد تسـعة أشهر. كانتا ضـعيفتين صـغيرتين تتلويان في المهد كفأرتين مبللتين بالحليب، وكنا جميعاً نتوقع أن تموت إسـتبرق أيضاً، لكنها واصلت الحياة وإن كانت نحيلة صفراء لكنها طيبة وجميلة.

Twitter: @ketab_n

انطلق نوح من قريتنا الأولى ـ الصُبح ـ ظهراً، مصطحباً ابنته التي عطّرت ثوبها، ليصلا بعد ساعة إلى مدينة تكريت وقبل أن يدخلا إلى عيادة أحد الأطباء، حيث كانت إستبرق تمشي خلفه على مسافة خطوة وهو يشق لها الطريق على رصيف السوق، مرت سيارة مرسيديس سوداء على مهل وامتدت من نافذتها يد إلى مؤخرة إستبرق وعبارة: «خوش طيز». فصاحت البنت فزعة واستدار إليها الأب الذي سرعان ما هب غاضباً ساحباً السائق من رقبته، صارخاً بوجهه: «يا ابن الكلب»، ورافعاً إياه كمن يرفع جرة من عنقها، حتى أخرجه من نافذة السيارة. كان شاباً نحيلاً يضع نظارات زرقاء فوق شويربه الجديد ويرتدي دشداشة بيضاء عريضة، على وسطها/ وسطه حزام جلدي عريض يتدلى منه مسدس عند الخاصرة. السيارة السوداء واصلت سيرها البطيء خالية حتى ارتطمت بسيارة واقفة وتوقفت، فيما انهال نوح بقوته على الفتى ضرباً وشتماً والفتى يصيح: «أتعرف ابن من أنا؟». ونوح يردد بلا هوادة أو اكتراث وبلا انقطاع عن الضرب: «نعم.. أعرف؛ أنت ابن كلب.. أنت ابن قحبة». تلطخ أبيض الدشداشة بأحمر الفتى الذي حاول أن يمد يده إلى مسدسه، فلوى نوح ذراعه وحمله عالياً ثم ضرب الأرض به، فسكن الشاب بلا حركة، بينما الغضب يجتاح نوح على أوجه فانحنى وأخذ المسدس من الحزام واستخرج مشط الرصاصات واضعاً ثلاثاً منها في كفه وألقى بالمسدس إلى فتحة المجاري، ثم عرى مؤخرة الفتى الساقط على وجهه وراح يُدخل الرصاصات في الإست عنوة، أدخل اثنتين ثم وجد نفسه مطوقاً بأصحاب المحلات ودواب السوق ـ كما يسميهم ـ ترفعه جماعة وهو كثور مصارعة، صائحة به: «هل أنت مجنون.. هذا ابن أخت سكرتير نائب الرئيس».

Twitter: @ketab_n

بعدها.. وجد نفسه محمولاً من ظلمة ضربات الشرطة على بطنه إلى ظلمة بطن زنزانة، لا يعرف عن إستبرق شيئاً، ذلك أنها حين رأت الدم تغوطت الأصفر على ثوبها المُعَطّر وجلست أمام واجهة محل قريبة، تبكي وترتجف مثل سعفة في المطر، حتى أخذها بعض أولاد الحلال إلى قريتها، الصُبح، حيث غسلتها أمي ودثرتها في الفراش، وروت لجدها ـ مُطلَق الجالس عند رأسها ـ ما حدث، فانتفض صائحاً بالعائلة: « إذا نبح عليك الكلب فلا تنبح عليه، ولكن إذا عضك فعضّه». ذلك القول الذي أصبح حكمته في الحياة واشتهر به بين القرى منذ طفولته، حين كان يداوم على دروس الملا عبد الحميد، حاملاً حقيبته القماشية التي صنعتها له أمه، بعد أن قصت النصف الأسفل لكيس الرز وطرزت على جانبه طفلاً مجنحاً وخاطت له حمالة يعلقها على كتفه. كانت حقيبة تتدلى تحت إبطه وفيها نسخة من القرآن ودفتر رمادي الأوراق ورغيف خبز وحفنة تَمْر ورأس بصل.. مثل حقائب كل أولاد القرى الذين علمهم الملا عبدالحميد القرآن. وذات مرة، اعترضه كلب في طريقه إلى المسجد. نبح الكلب عليه فهرول، وهرول الكلب خلفه، ركض فركض، ثم توقف ليلتقط حجراً، لكن الكلب اعتلى ظهره، فاستدار إليه وتصارع معه على الأرض. خمّش الكلب رقبته وعض ساقه، وازداد نباحاً وشراسة على وقع الضربات، وفي فورة العراك وجد مطلق رقبة الكلب أمام وجهه فعضها بقوة أسكنت الكلب وأسكتته سوى من صوت خفيض خجول: «عُووو.. عووو»، وانصرف سابلاً ذيله دون أن يلتفت، فيما واصل مُطلَق طريقه إلى المسجد وهو يعرج. سأله الملا عن تأخره وعن هذا الدم، فأجابه وسط عيون الضغار: «نبح عليّ الكلب فلم أنبح عليه، ولكنه عضني فعضضته». صمت الملا قليلاً ثم ابتسم وقال: «صفقوا له».

Twitter: @ketab_n

وأنزل عمامته وربط بها ساق مُطلَق، ثم أعطاه حفنة أخرى من التَمر وربت على كتفه.. ومنذ ذلك الوقت اشتهرت حكايته وأصبح يُفاخر بها، معتبراً ما قاله حكمة هو مُكتشفها، ممهورة بتكريم الملا عبدالحميد له، «ألف رحمة على روحك يا ملا عبدالحميد».

انتفض جدي مُطلَق، الذي يعتز بحمله لاسم جدنا الأول، ونادى على أولاده التسعة وأحفاده وأخوته وأولادهم وأحفادهم وأولاد عمه وأولادهم وأحفادهم، وقال لهم: «جهزوا أسلحتكم وسياراتكم كي نهجم على تكريت ونُخرج نوح من الحبس، فلو سكتنا على البَعْصَة سيركَبوننا». فسارع الجميع لإخراج الهراوات والسيوف والخناجر والفالات والبنادق والمسدسات من خلف دكات الفرش ومن المزابل حيث كانت مدفونة. وأشارت أمي إلى بقعة في جدار بيتنا الطيني كي أحفرها بعد أن أنزلت لوحة (آية الكرسي). ناولتني فأس حطبها قائلة: «اضرب هنا». فرحت أضرب الحائط.. وأضرب حتى ارتطم الفأس بمعدن. وقالت: «استخرج هذا الصندوق». فوسعت دائرة ضرباتي التي أصبحت نقراً خفيفاً حتى أدركتُ حدود الصندوق فأخرجته. صفيح صدئ. وعلَّقَت بحنان: «الصندوق هدية جدتك لنا في العرس وما فيها هدية جدك وأعمام والدك». ثم أضافت: «اذهب به إلى جدك». كان ثقيلاً، ولولا الظلمة وقصر المسافة لفتحته في الطريق، لكنني تصبرت حتى وضعته أمام جدي المحاط بخمسة من أعمامي وأحد أخوالي، ففتحه وأخرج منه بندقية مفككة ومسدسين ملفوفين بأقمشة رطبة بفعل زيت الشحم النفطي الذي كسا الأسلحة.

كان الأقارب يتقاطرون إلى بيت جدي حيث التوتر يشد الوجوه والمحادثات. قهوة مرّة وذكريات معارك واستنفار رجولة، وحكاية

Twitter: @ketab_n

جـدي صـغيراً مـع الكلب وحكمتـه تعاد ويتـم استلهامها. خططٌ على ضـوء معلومات ناقصـة من بعض الذيـن زاروا تكريت مؤخراً، لأن جدي لا يعرف عنها الآن شـيئاً وقال:«كنـت أعرفها منذ كانت قرية صـغيرة، ترابها أحمـر، مليئة بالجرذان وبعض رعاتها يتاجرون بالجحاش.. فأين الحَبس؟». قالوا لا نعرف بالضـبط فقد كثرت فيها العمارات ومراكز الشرطة.. مصـطفى يعرف لأنهم قد سجنوه هناك قبل سنتين حين شتم الحكومة في سوق الغنم. قال: هاتوا مصطفى.

لم ننـم في تلك الليلة؛ اجتمع كل آل مطلـق ومن تزاوج معهم من أهـل القرية، حتى اكتظ البيت والباحة بالرجال وهم يهيئون أحزمتهم ويحشـونها بالرصـاص. اليشـامغ علـى الأكتاف والأيدي تسـتعيد تعارفها عبر مصـافحتها لمفاصل الأسـلحة، فيما تنشغل النساء بالطبخ وجلـب المخفي مـن العتاد في صـرر الثياب القديمـة.. والهمس عما جرى لإستبرق.. والرهبة.

الأطفال يلعبون لعبة الحرب، وكلما توقفوا للاسـتراحة تفحصت نظراتهم الأسلحة بين أيدي آبائهم وحاولوا لمسها عبر الجلوس المُهذب جوار الآباء حتى يغفلوا أو ينشـغلوا بالحديث. بعضـهم توسل بأمه أن تقول لأبيه أن يصـطحبه معـه، لكن الأم تنهره بحدة حاسـمة:«وين تـولي؟ هذه نـار كبرى وليسـ لعب جهـال». وحين طـال الليل نام الأطفال في أحضـان أمهاتهـم أو على أفخاذ الأباء أو على العشـب. وجلس الرجال في مجموعات صـغيرة، فيمـا جدي يُذكرهم بغزوات المسـلمين الأوائل ويقرأ القرآن حتى صـاح أول ديوك الفجر، فنهض آمراً برفع الآذان وصلىٰ بنا جماعة. كان عمري حينها سبعة عشر عاماً وأُحسَب من الرجال.

Twitter: @ketab_n

ركبنا السيارات وانطلقنا رتلاً لنصل مع أول الصباح. طوقنا مبنى المحافظة. أطلق عمي رصاصة في الفضاء خرج على إثرها المحافظ ببجامته المخططة بالأحمر في الشرفة خلف أصص الورد. أطل علينا ثم غاب وأعطى الأوامر لمن في الداخل بالاتصال بالشرطة والقيادة. عاد للظهور في الشرفة مرة أخرى، لكن، ببذلة أنيقة وربطة عنق، فهمس جدي في أذن عمي الذي صرخ بالمحافظ بعدها: «أعطونا نوح الآن.. وإلا هدمنا المحافظة على رؤوسكم». هتف المحافظ بارتباك: «تفضلوا بالدخول.. تعالوا نتفاهم يا جماعة». قال جدي لعمي، قل له: «ليس بيننا ما نتفاهم عليه، أعطونا نوحنا ونرجع إلى بيوتنا». صاح عمي بالعبارة ضاماً كفيه حول فمه كمِقمع ليرتفع الصوت. فأجاب المحافظ بعد أن دفع إلى الداخل طفله الذي خرج يفرك عينيه: «أي نوح؟.. أنا لا أعرف عن أي شيء تتحدثون؟». لكز جدي عمي في خاصرته وسارا صعوداً لدرجات واجهة المبنى حتى اختفيا في عتمة البوابة، وغاب المحافظ من الشرفة أيضاً حين رآهما يدخلان. وما هي إلا عشر دقائق انتظار حتى وجدنا المدرعات وسيارات الشرطة تطوقنا، وفي السماء تحوم طائرتان مروحيتان، ومكبر صوت ينادي علينا من جهة لا نعلمها، ربما من كل الجهات ومن السماء ومن الأرض ومن خلف أصص الورد في الشرفة: ألقوا بأسلحتكم وسلّموا أنفسكم. فرد أحد ملثمينا برصاصة ليصطخب الجو بعدها بلعلعة الرصاص بيننا وبينهم. عرفنا فيما بعد أن الذي أطلق الرصاصة الأولى هو ابن عمتي (صراط) الذي يحب أختي إستبرق. لذا كان أشدنا حماسة وغضباً حتى أصابتنا عدواه فرحنا جميعاً نطلق الرصاص على المدرعات بصخب إلى أن غيّبتنا قنابل الدخان التي أسقطتها الطائرات، فساد الصمت إلا من السعال والشتائم المتبادلة، التي تواصلت حتى وجدنا أنفسنا في

Twitter: @ketab_n

الظلمة. كل واحد في زنزانة. نتلقى الصفعات والركلات والسياط والشتائم، ولا نستطيع الرد بشيء سوى التوجع. كلما ازداد تعذيبهم لي ازددتُ تفكيراً بجدي وخشيةً عليه. كنت أسألهم عنه، فيجيبونني بالضرب و لم يسألوني شيئاً، فأقول لنفسي: سيموت حتماً لو فعلوا به ما يفعلونه بي. فمن شدة الأوجاع تخدر جسدي و لم أعد أقوى على الحركة. غبت عن الوعي لمرات كثيرة تحت الضرب... أصحو على رشقات ماء بارد وشتائم.. حتى ظننت أنني مقيم هنا في العذاب منذ أعوام.. أم أن هذا هو عذاب القبر الذي كان يحدثنا عنه جدي؟.. فأتمنى أن يكون الأمر مجرد كابوس سأصحو بعده على إفطار أمي من القشدة والزبد والخبز الحار والتمر المقلي بالزيت والشاي المُهيّل. لكننا عرفنا فيما بعد أن التعذيب قد كان ليوم واحد فقط فلقد حملونا ليلاً والقونا جثثاً آنّة مُدماة فوق بعضنا في أحواض شاحنات عسكرية بعد أن حلقوا رؤوسنا وشواربنا جميعاً. سارت الشاحنات وسط رتل عسكري من تسع سيارات مسلحة حتى وصلت القرية في منتصف الليل، حيث كانت عوائلنا بانتظارنا على سطوح المنازل برفقة القلق.

توقف الرتل وسط القرية، حيث الساحة الواسعة أمام المسجد، تلك التي نلعب فيها (المحيبس) و(الخويتيمي) في ليالي رمضان الصيفية، وتقام فيها مآتم القرية وأعراسها وسباق الخيل والحمير والركض داخل أكياس القطن المربوطة فوق السُرر والقفز العالي والعريض. ترجل الشرطة والعساكر بأسلحتهم وانتشروا في الساحة فيما راح أربعة منهم ينزلوننا حَملاً من الأذرع والسيقان، وقبل أن يرموا بأحدنا على الأرض اقتربوا به إلى الضابط النقيب ليسحب من الجيب البطاقة الجديدة التي أصدروها له.. مبدلين ألقابنا جميعاً من (المطلق) إلى (القشمر). وكلمة (قشمر) في العامية العراقية توحي

Twitter: @ketab_n

بالاستخفاف والاستهانة والإهانة وتسِم من تُطلق عليه بالغفلة أو الغباء. وفي قواميس اللغة الفصحى، التي قلبتها لاحقاً، تعني: القصير، الغليظ المجتمع بعضه على بعض. سمعتُ اسمي وأنا محمول: سليم نوح القشمر. ثم أُلقيت على الأرض فآلمني ظهري. قالت أمي أول صحوتي: «كنا نستلمكم جثثاً مع الهوية والرعب يخرسنا». قلت: وجدي؟ قالت: بخير، لم يضربوه كثيراً، لكنهم حلقوا لحيته وشاربه ورأسه مثل الجميع.

عرفنا في اليوم التالي أن ثلاثة رجال منا قد قُتلوا ـ جدي يقول استشهَدوا ـ أثناء الاشتباك وسط الدخان أمام المحافظة، و لم يُصب أحد من الشرطة. في اليوم الثالث استطعنا نحن الشباب أن ننهض ونتحرك فزرت جدي على الفور لأجده في أوج قوته وغضبه. يفكر بالاتصال بأصدقائه من شيوخ العشائر والقرى الأخرى ممن تعلموا معه القرآن على يدي الملا عبد الحميد، كما يفكر بالاتصال بأصدقائه من شيوخ عشائر الأكراد في مخمور وأربيل والتركمان في كركوك والشبك في الكوير وأصدقائه من اليزيديين في سنجار الذين كانت تربطه بهم علاقة ثقة طويلة أيام متاجرته بالبصل، كما فكر برفاق قدماء من المسيحيين في قرقوش وتلكيف الذين شاركوه القتال أيام الإنكليز، وسادة في النجف وكربلاء يعرفهم أيام كان يسافر إلى هناك ليجلب بعض الكتب وأصدقاء من البصرة أيام عمله في الموانئ.

كان جدي يفكر بمعاودة الهجوم مرة أخرى ويبدو أن الحكومة قد علمت بهذه الاستعدادات فأعادوا أبي إلى قرية الصُبح عند الصبح حليق الرأس واللحية والشاربين، وقد شُلت ساقه اليسرى والتوت قدمه وتورمت محترقة لكثرة ما أوصلوها بالكهرباء.. وحين كان

Twitter: @ketab_n

يطلب منهم تحويل السلك إلى اليمنى، على الأقل، كانوا يضعونه على خصيتيه حتى اكتوتا.. لقد تأخر شفاء أبي وحين شفي صار أعرج و لم ينجب بعدنا نحن الستة الذين كنا. وكف عن حلمه باثني عشر ولداً.

قال له جدي: لقد عضَّـكَ. أجابه أبي: سأعضّـه. فسأله: كيف؟. قـال بعد أن أخرج من جيبه رصاصـة مسـدس الفتـى، التي جعلها، لاحقاً، ميدالية في سلسلة مفاتيحه: سأُدخِل الرصاصة المتبقية فيه، قال «فيـه» و لم يقل «في مؤخرته» لأنه لا يجـرؤ على ذكر كلمة نابية أمام جدي أبداً أبداً.. سأحلق رأسه وشاربيه، وسأكتب على جبهته بالوشم أو بالكيّ (قشـمر). قال جدي: متى؟. أجاب أبي: لا أدري، ولكنني سـأفعل ذلك حتماً. أتاه جدي بالقرآن وقال: أقسم على ذلك. فوضع أبـي يده على الكتاب وأقسَـم راضـياً عما عزم عليه بعد أن استشـعر الرضا في صـوت جدي. وأضاف: لقد أخذ البدوي ثأره بعد أربعين عاماً وقال لقد تسرَّعت. كان أبي يقصـد جِديّة عزمه على تنفيذ قسَمه مهما طال الزمن.

لاحظنـا بعدهـا أن الآخرين من أهالي القرية، مـن غير المنتمين إلى عشـيرتنا، قـد راحوا ينادوننا بالكنـى وليس باللقب كمـا هو معتاد، فأدركنـا أنهـم يفعلون ذلك أمامنا فقط، احتراماً لمشـاعرنا أو خشـية من عنفنا، لكـن أطفالهم ينادون أطفالنا، صراحة، بـ (القشـامر) عند الخصومات، وهم فيما بينهم يستخدمون اللقب الرسمي الذي سجلته لنا الحكومة في البطاقات. فقـرر جدي، الكاره للنفاق، أن نرحل إلى مكان خاص.

وبعد أسبوع من التفكير أمضاه محدقاً عبر نافذة مضيفه إلى نهر دجلة حيث جبل مكحول في الضفة الثانية، مكرراً صلوات الاستخارة قبل

Twitter: @ketab_n

نومه. قال: إلى هناك. فجمعنا حوائجنا ووضعناها في الزوارق ليلاً. وحين صرنا وسط النهر صاح بنا: ارموا بكل راديو وتلفزيون ومزقوا كل أوراق الحكومة وألقوها في النهر. ففعلنا شاعرين بخلاصنا من عبء غامض كان يخنقنا. وزغردت امرأة حين رأت الحماس على سلوك الرجال وتعليقاتهم، فمنهم من قال تهكماً: ستصلهم مزق أوراقهم في النهر، فليشربوا نقيعها. وضحك، وضحك الجميع.

كنا أقل من مائة إنسان وبضع قطط وكلاب ودجاجات وحمير وحصان واحد. حين وصلنا الشاطئ وسحبنا قواربنا على الرمل حتى استقرت، ووقفنا جميعاً تحت ضوء القمر نتلفت حولنا، تحف بنا أصوات الأمواج وحفيف الأشجار وعواء بنات آوى ونقيق الضفادع وصرير الجنادب في الدغل القريب.

قال جدي: كونوا آل مطلق يداً واحدة، تراحموا فيما بينكم، راعوا بعضكم بعضاً وارعوا نساءكم ودوابكم.. وإياكم والمنافقين للحكومات، لا تصدقوهم ولا تصادقوهم ولا تتزاوجوا معهم. ابنوا عالمكم هنا وفق ما يريد الله وما تريدون، لا تطلبوا من الحكومة ورقة ولا صَدقة ولا مالاً.. أما الضروري من النفط والدواء فاشتروه من أهالي قرية الصُبح بالمقايضة دون أن تخوضوا معهم في حديث أو تسألوهم عن شيء.. ولا تنسوا ثأركم أبداً ـ ناظراً إلى أبي ـ حين يزداد عدد الرجال فيكم على السبعين.. بعدد أصحاب رسول الله في معركة بدر وبعدد أصحاب الحسين حفيد رسول الله في كربلاء، اشرعوا في تفجير أعمدة الحكومة، واضربوها بيد من حديد حيثما استطعتم. واحملوا وصمة لقب القشامر حتى تثأروا.. لأني أخاف أن تنسوا حقكم إذا تناسيتم الاسم الشتيمة. وليكن القرآن مدرستكم والصيد

Twitter: @ketab_n

والسباحة رياضتكم والحق محور حديثكم والحرية هدفكم والصبر أسلوبكم والصدق لسانكم والعمل ديدنكم والذكرى قاعدتكم.. لا تركنوا للنوم إلا مرغَمين. وحرمتُ عليكم أكل نتاج المصانع وخدمة الحكومات الظالمة ولباس الشرطة ودم بعضكم على بعض.. فهيا إلى بناء قرية نسميها اليوم بالقشامر كي لا ننسى ونسميها بعد الثأر (الأحرار، أو الكرامة، أو المُطلق).. اللهم أدم علينا حبنا للحرية وكرامة ابن آدم، وأمِتنا كما تريد أو كما نريد لا كما يريدون.. آمين يا رب العالمين.. ورددنا جميعاً بطقوسيّة صادقة.. آمين. فتردد الصدى في الجبل والغابة وانعطافة النهر وسط سكون الليل.. آمين متضخمة كصوت ملايين الحجاج أو جيش يتأهب للحرب.. فزادت رهبة الصدى وحماستنا من حماسة جدي فواصل الدعاء تاركاً لنا فسحة من الصمت بعد كل عبارة كي نُؤمن عليها: اللهم إنا نعوذ بك من العجز والكسل (آمين)، ونعوذ بك من الجبن والبخل (آمين)، ونعوذ بك من الدَين وغلبة الرجال (آمين)، ونعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذلّ إلا لك ومن الخوف إلا منك (آمين)، ونعوذ بك من شر الخَلق وهَم الرزق وسوء الخُلق.. ونعوذ بك من شماتة الأعداء وعضال الداء وخيبة الرجاء يا أرحم الراحمين ويا رب العالمين. (آمين.. آميييين).. ثم حملنا أشياءنا وتوغلنا في الغابة، كلٌ يبحث عن بقعة ليبني فيها بيته الجديد.. وما زلتُ أسمع صدى تلك الـ(آمين) النادرة في رهبتها حتى اليوم.

Twitter: @ketab_n

- ٢ -

كنتُ أحب والدي دون أن أفهمه. أستشعر فيه أكثر من نوح واحد يجيد الموائمة بينهم. أما أمي فقد كان ازدواجها واضحاً مما يدعو لمحبتها بيسر. لم أدرك عظم محبتي لها إلا أيام غيابي عنها في الجيش والآن في الغربة، ذلك أننا كنا نجدها حاضرة دائماً لامتصاص غضبنا ومشاركتنا الألم والفرح وضامنة لنا تهيئة الطعام وغسل الملابس والتذكير بالواجبات ونقل أوامر كبارنا لصغارنا ومنع الكبار من ضرب الصغار وتهدهدنا للنوم على إيقاع حكايات الأميرات العاشقات والسعلوات والحنافيش والطناطل والسندباد. فيما لم أسع يوماً لفهم ابنة عمي عالية. أحبها بلا سبب وبلا شروط، لأنها، هي الأخرى، قد أحبتني بلا أسئلة صعبة.. لقد تعلمتُ ذلك منها، على الرغم، من أن الجميع كانوا يرون في جدي مُطلَق نموذج المعلم الوحيد، لكنني أدرك الآن بأننا جميعاً لم نأخذ عنه شيئاً تجوهَر في أصل ذواتنا، بمقدار قوة اتخاذنا له معيارنا الضاغط والنِديّ الذي يجبرنا على نحت ذواتنا الخاصة في الخفاء.

أبي أكبر إخوته لذا قد وقع عليه العبء الأكبر من العمل ومن ممارسات جدي لتصوراته عن التربية الصارمة وتغذيته بمفهوم الطاعة العمياء للوالدين، «لأن رضا الله من رضا الوالدين». فلم يرفض نوح طلباً أو أمراً لوالده أبداً أبداً. أذكرُ، مثلاً، أنه قد عاد ذات ظهيرة تموزية

Twitter: @ketab_n

منهَـكاً مـن عمله في شـركات النفـط في كركوك، وبمـا أن من عادته الدخول أولاً إلى صـالة الضيوف للسـلام على جدي الذي يقيم فيها وحيـداً مع كتبه منذ مـوت جدتي، ثم يأتي إلى البيت يقبلنا ويصـافح أمـي. في تلـك الظهيرة أمره جدي أن يذهب لإصـلاح مضـخة الماء العاطلـة في المزرعة، فـترك حقيبته هناك وتوجه فـوراً إلى الحقل دون أن ينعطف إلى البيت ليسـلم علينا أو يسـتحم ويرتاح ويتناول غداءه، كما هـي عادته. و لم يعد إلا بعد أن أصـلحها عند غروب الشـمس. أبـي لم ينظر في عيني جدي أو حـدق في وجهه على الإطلاق. دائماً ينظر إلى الأرض مسـتمعاً إلى كلامه بانتباه، تجاوز عمره الأربعين عاماً وهو يقول إنه يستحي من النظر إلى وجه أبيه. وسألني ذات يوم هادئ قرب شـاطئ النهر، بنبرة تشبه الفضول والتوسل: كيف تنظر أنت إلى وجهه؟.. هل نظرت في عينيه؟.. هل نظرت في عينيه؟!.

وأود لو أسـأله الآن: فكيف قتلته إذاً؟!. وكيف وصلت إلى هنا؟.. متى؟.. ولماذا جئت إلى إسبانيا تحديداً؟. هل جئت تبحث عني مثلاً؟. لكن احتضـانه الأول لي كان حيادياً، إن لم أقل بارداً!!. وكأنه لم يكن راغباً به!.

وجدت أبي صـدفة ليلة السـبت الفائـت في مدريد، حيث يدب الضجر إلى نفسي نهايات الأسابيع فأدب في الشوارع والأزقة المظلمة بلا هدف، أدخل أي مرقص أو بار، فلم أصـدق نفسـي و لم أصـدق ما رأيت في مرقص يغص بمختلف الجنسـيات من مهاجرين وسائحين وأسبان طبعاً، هيبيين ومثليين ومهمشين وتجار دخان وأبناء ليل وأنصار سلام وعنصريين ومعارضي عولمة وحليقي رؤوس.

هـذا الرجل حليق الشـاربين. صَـلع خفيف فـوق الجبهة. طويل

Twitter: @ketab_n

الشعر مربوطه إلى الخلف وخصلتان صغيرتان منه مصبوغتين بالأحمر والأخضر. ثلاث حلقات فضية تتدلى من أذنه اليسرى؛ أقراط.. أيُعقل أن يكـون هذا أبـي!؟.. أهذا هو أبي حقاً؟!. فـأراني ميدالية مفاتيحه التـي اعتدنا على مشـاهدتها منـذ ما بعد حادث هجومنـا على مبنى محافظة تكريت. الميدالية: رصاصة مسدس صغيرة، كان قد أفرغها من البارود وأدخل في قفاها رأس سلسـلة المفاتيح. بقيتُ صافناً في وجهه متشـككاً، فسـارع بالكشـف لي عن قدمه العرجاء. عندها تيقنتُ.. وتعانقنا.

متـى؟ وكيـف؟ ولمـاذا جـاء أبـي إلى مدريـد؟؟.. دوختني هذه الصـدفة/اللقاء على مدى ثلاثـة أيام. وبعدها رحت أسـتعيد هدوئي وأهضم المفاجأة راضياً بإلغاء اللامعقول، معاوداً التحديق في لوحات سـلفادور دالي كي أعرف الواقع. فمنـذ هروبي خارج أقواس العراق قبـل عشـرة أعوام وطّنت نفسـي على النسـيان حتـى توطّنت، دون أن أدرك أننـي كنت أنفذ قـرار قريتي الأخير بالانحلال.. لا رسـائل بينـي وبينها، لا أخبار عنها إلي ولا عني إليهـا. كان أبي آخر من رأيته هناك، رأيته من نافذة المضيف دون أن يراني، وغادرت مع الفجر دون وداع. بعدها لم أرَ أحداً من قريتي وأقنعت نفسـي حد اليقين بأنني لن أرى أحـداً منها، لن تراني ولن أراهـا أبداً.. فحتى لو أردت ذلك فلن تقبلنـي هي لأنني قد خنتها حـين هجرتها سراً بعد أن تعفنت السـبع عشرة جثة فيها وأصـبح هواؤها لا يطاق. لذلك ظللت بعدها أتحاشى الروائح الكريهة لأنها سـتذكرني بكل التفاصـيل التي أسعد بنسيانها التـام أحياناً. أرمي أكياس الزبالة قبـل امتلائها. أختار الطوابق الرابعة للسكن بعيداً عن المجاري الآسنة في الأرض. أرش العطور في الحمام وتحت إبطيّ. أتحاشـى المرور جـوار شرطي أو وزارة ولا أتابع الأخبار

Twitter: @ketab_n

في وسائل الإعلام.. لكن أبي أحضر كل شيء بحضوره المفاجئ هنا، وعبر ترديده الدائم لعبارة ما كنت لأتخيله ينطق بمثلها وهو المهذب الخجول المتديّن:« هذا العالم جايف».. وحين أرضخ للاستحضار وأسأله عن قريتنا (القشامر) يقول:«كل العالم قشامر».

مع أبي بدأت قرية القشامر، وعلى يديه تم إنقاذها من الدخول إلى سراديب الأمن العام ثانية، وبموت (أو ربما بقتل) جدي أنهاها، وعلى يديه تبدأ من جديد، هنا في مرقص مدريدي مظلم كتب على بابه (Discoteca Al-Kashamer) وتحتها بخط أصغر:« في البدء كانت الحرية ونريدها أن تكون حتى النهاية». وتحتها، بحجم الخط نفسه لكن بلون أزرق:«سنرحب بك أكثر كلما تحررت أكثر».

أريد أن أسأله عن أشياء كثيرة: أمي وأخوتي وأصدقاء طفولتي وقريتنا بعد السبع عشرة جثة، وعن ابنة عمي عالية.. لا.. إن عالية قد غرقت في النهر.. فلماذا لا أريد تصديق ذلك على الرغم من أنني رأيتها بنفسي؟!.. أريد أن أسأله:هل قَتلَ جدي حقاً؟.. لكنه مازال قليل الكلام، وكلما ذهبت إليه في المرقص ليلاً وجدته محاطاً بشلة من أصحابه الأسبان والهولنديين والألمان والإنكليز. أغلبهم قد حلقوا أو صففوا أو بعثروا شَعر رؤوسهم بأشكال غريبة ولطخوها بأصباغ فاقعة، تتدلى من أحزمتهم حفنات المفاتيح وسلاسل شبيهة بتلك التي تربط الكلاب المنزلية. تُرصّعهم المعادن في كل جزء من ملابسهم الغريبة وتتدلى من آذانهم وأنوف وسُرر بعضهم حلقات فضية أو بلاستيكية، بمن فيهم أبي الذي يرتدي قميصاً مشجراً فاقع الألوان شابكاً في أذنه اليسرى ثلاث حلقات متتابعة الأحجام، لكنه لم يقص شعره مثلهم على شكل ديك أو أسد أو نعجة وإنما تركه يطول بعد أن

Twitter: @ketab_n

زحف صلع خفيف على جبهته ثم ربطه من الخلف على شكل ذيل حصان أو مثل بنات المدارس صابغاً خصلتين منه إحداهما بالأخضر والأخرى بالأحمر.. أهذا هو أبي حقاً؟!.. المتحلقون حوله، الصاخبون بالضحك والدخان وصفع أفخاذ بعضهم كانوا شباباً باستثناء امرأة في الأربعين كان يحتضنها بين الحين والآخر وتُقَبله. وهي كثيرة الكلام، على العكس منه، تعلو ضحكاتها على ضحك الجميع. قالت لي إن اسمها روسا وهي من برشلونة لكنها هنا في مدريد لأنها تحب أبي.

مرت ثلاثة أيام و لم استطع الانفراد به. أدعوه لنخرج معاً إلى مقهى أو أن يأتي إلي بيتي: أسكن هنا.. قريب، في شارع فومينتو على بعد عشرة دقائق. فيقول: غداً. وحين أسأله في الغد يقول: غداً. ويعتذر عن الأمس: أنا مشغول جداً يا سليم- ولا يقول يا ابني- كما ترى، ولكنني أعدك.. غداً.. غداً.. بالتأكيد- ولا يقول إن شاء الله-. إلى أن جئته ذات ظهيرة فبادرني: تعال أحلق لك رأسك. ودون أن ينتظر إجابتي سحب مقعداً صغيراً من إحدى الزوايا إلى وسط صالة الرقص، وسط مخلفات ليلة الأمس، فجلست، وصاح: فطومة، هاتي ماكنة الحلاقة. فتركت السمراء غسل الكؤوس وتناولت علبة من على الرف خلفها. أتته بها: تفضل سِيدي. صفعها على مؤخرتها برفق، قبل أَن تنسحب: شكراً. فعادت إلى الكؤوس، وسألتُه: أهي عربية؟. فقال: فاطمة؟ .. نعم، إنها مغربية.. فتاة طيبة.

كانت بقية عاملات البار، الإسبانيتان، رائحات غاديات حولنا مُذكرات روسا بالنواقص من الشراب والمناديل وعلب الدخان، ونوح يوزع عليهن الأوامر بالإشارات والابتسامات، فيما ماكنة الحلاقة في

Twitter: @ketab_n

يده، في رأسي، وصاحبته البرشلونية تدخل وتخرج حاملة سجل الحسابات ومتصلة بالهاتف مع شركات التزود بالبيرة والمشاريب، وطالبة من محل الكرزات أن يبعث لها بعشرين كيلو من الزيتون وعشرين من الكرزات وعشرة من حَب زهرة عباد الشمس، وبسرعة، بموزع الدخان ليزودها بصندوق من كل نوع، علبة قداحات وعلبة علوك، وبسرعة، فيأتون بسرعة وتأمر العاملات بترك التنظيف، الآن، وترتيب البضائع. يراقبهن أبي متوقفاً عن قص شعري، ثم سألني حين رأى الأمور تسير على ما يرام: وأنت كيف حالك؟، ماذا تعمل؟. قلت: بخير، أعمل سائقاً في شركة لتوزيع الصحف من الساعة السادسة فجراً وحتى الحادية عشرة صباحاً. وقال: هل لديك امرأة؟. قلت: لا.

صاح بروسا بجملة هي مزيج من الإنكليزية والعربية، ففهمت منها كلمة (بخشيش) التفتُ إليها لأرى وجهها يمانع عبر التغضين وغمزَة، لكنه مط اسمها مؤكداً: رووسا. فاتجهت منصاعة إلى صندوق الحساب. كلنا نسمع خَرخَشة القطع النقدية. وضعت شيئاً في كف العامل الذي جلب صناديق البيرة. فعاود أبي الحلاقة وسألني: ماذا تعمل في الوقت المتبقي؟. قلت: أقرأ وأكتب أحياناً وأذهب إلى السينما. قال: وهل قرأت لوركا وألبرتي بالإسبانية؟. قلت: نعم ولكن شِعرهما لا يعجبني كثيراً، أفضل عليهما خوان رامون خيمينيث وبيثنته ألكساندره. قال: للأسف أنا لا أتحدث الإسبانية حتى الآن، بضع كلمات فقط، وماذا تكتب.. شِعر؟. قلت: قصائد قليلة، أكتب القصص أفضَل، ونشرتُ بعضها في صحف المعارضة العراقية في لندن. تساءل باستغراب: معارضة؟!.

Twitter: @ketab_n

فكـرت أن اسـتثمر مدخل الكتابة لأسـأله عن كتـب جدي، عن قريتنـا وأمي وإخوتي وأصـدقاء طفولتي وابنة عمـي (لا.. ابنة عمي ميتـة) ومقتل جـدي فقلت: أفكر بكتابـة رواية عن قريتنـا، ولكنني متردد في فضـحها. قال: أكتب ما تشاء فلن يحدث أسوأ مما حدث.. هذا العالم جايف.

إنها المرة الأولى التي أسـمع فيها أبـي ينطق بكلمة كهذه. أدركت لحظتها بأن تغيرات كثيرة قد طرأت على شخصيته، وأنه يُخفي الكثير، وثمة تجارب مهمة قد مرّ بها في السـنوات العشر الماضية التي افترقت فيها عنه.. أردت أن أسأله عن كيفية وصوله إلى هنا، وعن روسا هذه. لكنه صـفع رأسـي مداعباً وقال: خلاص انتهت الحلاقة.. هيا اذهب إلى الحمام واغسل رأسك.

حين مررت من أمام البار ابتسمت فاطمة، شفتاها مثل تينة مقسومة كما يقول هيرمان هسة في (سـدهارتا)، وعيناها سوداوان واسعتان، كثافة رمشـيها تزيد من حدودهما سحراً وهي تمسح كأساً بصدريتها، فابتسمت لها أيضاً دون نسيان صفعة أبي لمؤخرتها قبل قليل. دخلتُ الحمام ففاجأتني صـورتي في المرآة حليـق الرأس، حلاقة رقم واحد، أو صـفر؟.. مثل بعض أصحابه وبعض زبائنه الليليين. تلمست رأسي كمن يتحسـس بيضـة غريبة، فلم أقص شـعري بهذا الشكل إلا حين حلقـوه لي أيام الجيش غصـباً.. حيث ملامح العريف خزعل منتشـية بحلاقة شـعرنا أول دخولنا للمعسـكر. كانت رؤوسـنا بين يديه لعبة مسـلية يحركها بعنـف، بفظاظة ومَرَح، إلى كل الجهـات كأنه يتعمد استفزازنا.

شـعرت بغربة شـكلي عني للحظة فعزمت ألا أفكر بالأمر طويلاً

Twitter: @ketab_n

لأن الـذي يهمني هـو الانفتاح على أبي والتقرب منه. أنزلت رأسـي في حوض المغسـلة تحت الحنفية وسـكبت عليه الماء البارد أغسله، ثم رفعته باحثاً عن قطعة صـابون فلم أجد. لذا عاودت إنزاله تحت خيط الماء، وقلت: هذا كاف لإنزال بقايا الشـعر المقصـوص فقط، وسوف أسـتحم حين أعود إلى شقتي. عندما رفعت رأسي مرة أخرى وجدت فاطمـة تقف إلى جانبي مبتسـمة في المـرآة، وفي يدها منشـفة مدتها لي قائلة:«نعيماً». شـفتان بارزتان، وسط سـمرتها الخفيفة، شبيهتان بالرسـوم الأفريقيـة، وعينـان واسـعتان مؤطَّرَتـان بالكُحل وسـواد الرمشـين. قلـت: شـكراً. وحاولت النظر إلى صـدرها فهو أشـد ما يشدني إلى النساء منذ عشقي الأول لابنة عمي عالية التي كانت تدهن لي نهديها بالتمر كي أمصـهما. لكن فاطمة استدارت عائدة إلى غسل الكؤوس فرأيت مؤخرتها المرفقة بمشهد كف أبي الصافعة له برفق.

نشّفتُ رأسي ونظرت في المرآة. قلت: ليس سيئاً تماماً. وخرجت. فقال أبي من زاوية دكة الموسـيقيين وهو يرتب أسلاك الميكروفونات: هل تريد أن أصبغه لك بالأشقر؟. سمعته جيداً لكنني تساءلت: ماذا؟. قال: أصبغه لك بالأصفر مثلاً؟. قلت: لا.. هذا يكفي.. هكذا جيد. وأضفت: أنا ذاهب، هل تأتي معي؟.

تناول المكنسـة التي في الزاوية وقال: لا.. أنا مشغول الآن.. دعها إلى وقت آخر.. غداً مثلاً.

قلت: حسـناً.. أنا ذاهب إذاً.. شـكراً على الحلاقة. واقتربت من البـار، أعطيت المنشـفة لفاطمة وأنا أنظر إلى عينيهـا، وإلى.. لم أتمكن من رؤية صـدرها أيضـاً لأنها كانت تمسح كأساً بصـدريتها: شكراً. وابتسـمت. اقترنَت بها صـورة أبي يصـفع مؤخرتها. أراهـا فأراه.

Twitter: @ketab_n

وعند الدرج الصاعد إلى باب الخروج كانت روسا تواصل توجيهاتها للفتاتين بأماكن التنظيف وتصفيف صناديق الأشياء القادمة. ودعْتهن، وصاحت بي قبل أن أبتعد عن الباب: تعال أيضاً في المساء.. ستكون السهرة جميلة. قلت: لا أدري سأرى، إلى اللقاء.

سرت في الزقاق المؤدي إلى تقاطع سانتو دومينغو قاصداً عبوره باتجاه بيتي، فيما يحتل أبي رأسي بـ»هذا العالم جايف» وبكفه الصافعة لمؤخرة فاطمة.. كيف يفعل ذلك وهو الذي جرنا لمحاربة الحكومة لمجرد أن أحدهم قد صفع مؤخرة أختي إستبرق؟!. أحاول تجميع ما أتذكره عنه كي أفهم هذه التحولات.. بالتأكيد هو أبي؛ الصوت والجسد الطويل المتين بالعضلات والقدم العرجاء والميدالية الرصاصة و.. أردت ترتيب كل ذلك لذا دلفت إلى مقهى في آخر التقاطع. جلست أمام النادل واتكأت على منصة البار. طلبت قهوة بالحليب وكأس ماء. أخرجت سيجارة أدخنها بعمق حقيقي. شاهدت وجهي في المرآة المقابلة محصوراً بين قنينتين، فتحسست رأسي دون أن أنشغل بالحلاقة الجديدة طويلاً لأن الذي يشغلني هو أبي.. الجديد. أحاول تفسير ما يحدث وتهيئة نفسي لتقبله باتساع وواقعية.. إنه هو أبي دون شك.. أتذكر كل علاقتي به جيداً.. أعرف شخصيته السابقة التي تركتها في العراق، في قريتنا قبل عشرة سنوات.. إنه أبي وإن كان يبدو الآن شخصاً مختلفاً تماماً.. إهدأ يا سليم.. نعم.. فلأهدأ قليلاً.. وأُحاول ترتيب الصورة..

Twitter: @ketab_n

-٣-

مثل بقية إخوتي، لم أناده بأبي حتى بلغت العاشرة حين استطعت التمييز، فقد كنا ننديه باسمه: نوح. بينما نقول لجدي: يا أبي. ذلك أن جدي هو الحاضر معنا في البيت أما أبي فكان غائباً للعمل في شركات النفط في كركوك. لا يأتينا إلا في اليومين الأخيرين من كل أسبوع حاملاً حقيبته المليئة بالهدايا وكتباً أجنبية وملابس متسخة. تقول أمي، عندما تريد حثنا على العمل، انظروا إلى والدكم، كان فتى في سنكم حين بدأ يشتغل في كركوك.. أتذكر ذلك اليوم؛ بعد زواجنا بشهر ويومين تماماً. منذ أكثر من عشرين سنة؛ بدأ كحارس ليلي، ثم حداد، ثم ميكانيكي، وبعد تفوقه في دورات اللغة عينوه رقيباً على العمال أو بمثابة مترجم وسيط بين السادة الألمان والعمال العراقيين. لم يحرص نوح على إفهامنا طبيعة انتسابنا له فقد كان مُوكلاً أمر تربيتنا إلى جدي مثلما ظل موكلاً شخصيته الخاصة إليه وطاعته حتى موته، (أو قتلِه له..!)، كذلك لم يقدمني هنا، في مرقصه، على أنني ابنه وإنما قال: سليم. فقط. وربما أن روسا هي وحدها من أعلمها بذلك لاحقاً حيث أخذت تعاملني بمودة خاصة بل وزائدة أحياناً.

أبي.. أو نوح ضخم الجثة قوي العضلات هادئ الطبع، أما جدي فشيخ نحيف يتكئ على عكاز لامع من الخيزران في رأسه رأس نسر بعينين من خرز أزرق أهداه له صديق باكستاني تعرف عليه في الحج

Twitter: @ketab_n

عنـد طوافهما حول الكعبة، لكن جدي لم يستخدم عصـاه هذه إلا بعد أن حك ملامح رأس النسر وأخفاها بحيث حوّله إلى مجرد كرة أو بيضـة. وبما أنه لم يستطع اقتلاع عينيه الخرزتين فقد اكتفى بتشويههما برأس سـكينة قصاصـة الأظافر. قلنا: لا.. لماذا يا جدي؟!. قال: هذه أصـنام. ومن يجسد صورة كائن حي سـيطلب منه الله في الآخرة أن يبث فيه الروح، وبما أنه سـيعجز لأن ذلك من خصوصيات قدرة الله، عندها ستحل عليه العقوبة.

أمـي تقـول إن جدي كان ضـخماً وقوياً مثل أبـي.. وهي بذلك تُطمئن نفسها على أن كرش أبي ستختفي بمرور الوقت ويعود رشيقاً.. دون أن ترى سبب نحافة الجد كونه قد أصيب بمرض السكري لهوسه بالتهـام الحلوى والتمر، فلـم يكن يخلو بيتنا أبداً مـن كيس تمر يتكئ في إحدى زواياه وعلبة حلوى أصـابع العروس مدسوسة بين كتبه... كما أثر عليه موت جدتي، ثالث زوجاته، فراح يذبل وينشـف شـيئاً فشيئاً مثل ضرع بقرة مريضة حتى صار نحيفاً إلى هذا الحد.. لكن قوة روحه وصوته لم تتأثّرا.. بل ربما زادتا، أصبحتا تعويضاً عن فقده لقوته الجسـدية بتحويلها إلى أوامر يفرضـها على الآخرين بقناعات صارمة لينفـذوا ما يريد. وكان لخيزرانته حضـوراً لا يقل مهابة عن حضـوره حين يهزها، فنسـمع أزيز الهواء حولها، مُهدِّداً بعنف كلما غضِب أو أصدر أمراً.. كنا نخافه ونخافها على الرغم من أننا لم نره يضرب أحداً بها أبداً، وربما كان للتخيل دوراً في تضخيم مهابته أكثر مما لو كنا جربنا ضرباتها. ومما يزيد من تصـورنا لبطش غضبه ـ عدا ذكرى عضه لرقبة الكلب صـغيراً ـ حكاية قطعه لإصـبع زوجته الأولى حين اختلفا، بعد شـهر من زواجهما، رافعة صوتها المعترض ومحذرة من أن تشتكيه إلى أخيها حمد، وهي تمد إصبعها السبابة نحوه كعلامة تهديد، فاستشاط

Twitter: @ketab_n

مطلق غضباً فهو متورم الاعتزاز بنفسه. أمسك بسبابتها عند حد عقلته العليا، وتناول سكيناً كانت إلى جانبه على حافة الطباخ. قطع العقلة ووضعها في جيبها، رأس إصبع نازف بحجم حصاة أو تَمرة. ثم أركبها على حمارها الذي جلبته معها كهدية من أهلها بمناسبة العرس، وقادها إلى خارج القرية وهي تمسك إصبعها المبتور صارخة، تنظر إليه وإلى جدي.. غير مُصدقة. وجَّهَها صوب قريتها وقال: أعطي إصبعك لأخيك حمد وقولي له هذا إصبعي الذي هددتُ به الملا مطلق باسمَك.. وأنتِ طالق بالثلاث. وضرب حمارها بقوة على قفاه فانطلق مهرولاً تاركاً في آثار حوافره قطرات من دمها. لم تعد بعدها أبداً وقيل أن حمد قد قال لها: تستحقين ذلك، كيف تهددين زوجك؟.. لو كنتُ مكانه لفعلت الشيء نفسه.

أما زوجته الثانية فلا نعرف عنها شيئاً سوى أنها ماتت بالسرطان و لم تُنجِب، فيما كانت الثالثة، جدتي، هي التي منحته كل أبنائه التسعة، أكبرهم نوح. وكان جدي هو الذي يقوم باختيار أسماء أولاده وأحفاده وكل المنتسبين إلى نسله قائلاً: إن الله هو الذي اختار أسماءكم وليس أنا. ذلك أنه ما إن يُولد أحدنا حتى يتوضأ، يصلي ركعتين، ويجلس عند رأس الوليد ثم يفتح القرآن كيفما اتفق، ينظر إلى وجه الطفل أو يغمض عينيه ويضع إصبعه على الصفحة، فيكون الاسم هو تلك الكلمة التي وقع عليها إصبعه. أما إذا كانت حرفاً أو وصفاً أو ليس في الآية ما يناسب المولود من حيث جنسه ذكر أو أنثى، فيقوم بإغماض عينيه مرة أخرى ويحول الإصبع عن موضعه في الصفحة نفسها.. وهكذا، مثلاً، انفتح القرآن على أول صفحة من سورة (الإسراء) حين ولِد أبي، ووقعت إشارة الإصبع على آية: «ذرية من حَملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا». وحين ولَدت أمي

Twitter: @ketab_n

توأم شقيقتي سندس وإستبرق وقع الإصبع على الآية ٣١ من سورة (الكهف): « أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يُحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نِعم الثواب وحسنت مُرتفقا». واسم عالية ابنة عمي جاء من سورة (الحاقة) في الآيات ٢٢-٢٣: « في جنة عالية. قطوفها دانية». وبالنسبة لي فقد انفتح القرآن على سورة (الشعراء) ووقع الإصبع على: «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم». ولا أدري فيما إذا كان لسورة الشعراء دوراً في علاقتي بالشِعر؛ قراءاتي الكثيرة له ومحاولاتي المتواصلة في كتابته، على الرغم من تلاشي الأمل في أن أصبح شاعراً ذا أهمية تُذكر.. كما كنت أحلم في صباي!، أم أن لعالية الأثر الأهم في دفعي لكتابته.. من أجلها؟. بعثت لها أولى قصائدي مع إستبرق فخافت مني، والسبب هو جدي، أيضاً، الذي كان يروي لنا حكايات الفرسان العشاق الشعراء ويتلو بعض قصائدهم المحتشدة بالخيل والليل والبيداء والسيوف ورؤوس الأعداء المتطايرة. وربما كنت مدفوعاً إلى الشعر بسبب أبي أيضاً، الذي يحفظ (الديوان الشرقي الغربي) لغوته بالألمانية، وإن كان لا يفقه كل كلماته. فلقد أهداه له صديقه الألماني كريستوف رئيس قسم العمال في إحدى شركات نفط كركوك قائلاً: اقرأ هذا، إنه مِنا ويحب نبيكم. فحفظه أبي في إجازة نهاية الأسبوع رائحاً غادياً على شاطئ دجلة، هازاً ذراعيه متخيلاً الأمواج والحصى وأشجار الصفصاف جمهوراً.

كنت حينها صغيراً على الجرف أرقبه، وتخيلت أنه يحضر لامتحان، لأن أخي الأكبر حكيم كان يفعل الشيء ذاته أيام الامتحانات. في إحدى التفاتاته، نحو جمهوره، رآني ونادى علي فنزلت مهرولاً حتى وصلت إليه، فجلس على صخرة ودلى قدميه في الماء. أجلسني على

Twitter: @ketab_n

ركبتيه وراح يحدثني عن غوته بإعجاب ويترجم لي بعض مقاطع كتابه. لم أفهم منها شيئاً لأنني كنت منشغلاً بالتمني؛ أن أكون كبيراً مثله كي تصل قدماي إلى الماء، لذا أجلت عملية الفهم أيضاً حتى أكبر. كان أبي يكرر: «الألمان شعب عظيم، تخيل أن كريستوف هو رئيسي في العمل لكنه صديقي أيضاً!، وهو يقول لي: أنتم اخترعتم طائر الفينيق بخيالكم ونحن جسدناه في الواقع.. زوجته سابينه شقراء جميلة، تكتب الشِعر وتعمل معنا في النفط.. الألمان شعب عظيم يا سليم.. شعَب عظيم». ولكثرة ما تحدث أبي عنهم كنت أتخيلهم مثل أهل الجنة الذين وصفهم لنا جدي، أو مثلنا حين ندخلها في الحياة الآخرة: الجميع شباب، طول الشخص ثلاثين متراً، لا يمرض ولا يشيخ ولا يموت، يأكل ما يشاء متى يشاء، يشير لأي طير بإصبعه فينزل من أغصان شجر الجنة ويحط في طبق أمامه مشوياً شهياً للأكل. فيأكل حتى يشبع، ثم تلتم عظام الطير وبلحظة يستعيد هيئته وحياته ويعود إلى غصنه. لا نتغوط هناك وإنما نتعرَّق عطراً، لنا صور فخمة ونساء جميلات من حوريات الجنة، إذا أطلت إحداهن الآن من السماء سيضيء نور وجهها الأرض. نضاجعهن ويعدن أبكاراً.. نغرف للشرب من أنهار من الخمر والعسل واللبن وما تشتهي الأنفس.

أبي لا يمل من تكرار: «الألمان شعب عظيم».. لذا تخيلتهم كذلك. تعلم أبي الألمانية والإنكليزية من الأجانب في شركات النفط، وكان يحفظ أيضاً مقاطع من هاملت شكسبير، وبالطبع يحفظ القرآن كاملاً لأن جدي يحرص على تحفيظنا إياه جميعاً، قائلاً بأنه سيكون أنيسنا في وحشة القبر ومحامياً يدافع عنا أمام محكمة الملكين ناكر ونكير؛ فإذا مات الإنسان ودفنوه ثم انسحبوا ليتركوه وحيداً دخل عليه الملكان يمتحنانه لذا: إن سألوك من هو ربك قل: الله، ومن هو نبيك قل: محمد،

Twitter: @ketab_n

وعن دينك قل: الإسلام، وعن كتابك قل: القرآن. ومن بين كل أفراد عائلتنا وحده أبي مَن ظل يحتفظ بالقرآن كاملاً في ذاكرته، لذا كان جدي يستعين به حين تقدمت به السن وصارت تخذله الذاكرة. أما نحن أَبناء الأجيال اللاحقة فقد حفظنا بعض الأجزاء ونسيناها باستثناء قِصار السور والآيات المرتبطة بأسمائنا، لأن جدي كان يحرص على أن يعرف كل منا، على الأقل، الآية التي انبثق منها اسمه وهو يقول: إن أسماءكم قد اختارها الله، وأصلها هنا في كتابه.. انظروا. ويشير لكل منا على آيته بإصبعه كأنه يعيد عليه مشهد تسميته الذي لم يره.

وقد اتبع الكثيرون من أهل القرية طريقته هذه بالتسمية، فمنهم من يصيبه الحظ باسم نادر جميل ومنهم من يجلب له اسمه المشاكل والتعب النفسي مثال ذلك ابن خالتي هدى الذي وقع إصبع أبيه على كلمة (صراط)، فكنا حين نتخاصم معه في اللعب صغاراً نناديه (ضراط)، وفي المدرسة نُضيف النقطة على الصاد كلما تمكنا من دفاتره في غيابه. لذا نشأ على عكس فطرته في الهدوء وحياء أهله؛ ولداً شرساً كثير التعارك، مُعذَّباً من حمله لهذا الاسم الذي لم يسترح منه إلا حين جاءت جثته مع جثة أخي حكيم وولدي أعمامي وولد خالتي ضمن السبع عشرة جثة التي تعفنت.

كنا نشاكسه ونستفزه ثم نركض مبتعدين عنه، وحين يُدرك أننا قد فلتنا من متناوله وأن حجارته التي يرمينا بها لا تصلنا، يقول بصوت عال وحُرقة: أتسخرون من اسم منحني إياه الله؟!.. ألا تخافون جهنم؟.. أتضحكون من الناقِش أم المَنقوش؟. فنخجل عندها فعلاً ونخاف الله ونستغفره. حين نتذكر حكاية جدي لنا عن رجل قال أن اسمه مالك بن دينار (ضحكنا على اسم دينار حينها فنهرَنا وأكمل

Twitter: @ketab_n

الحكايـة) كان ماراً في طريقه ذات يوم فصـادفه حمـار (أو كلب، لا أتذكر الآن بدقة). كان مُبقَعاً بشكل غريب، بقعاً سوداء وسط بياضه، على عينيه وبطنه وأذنيه وذيله، فضـحك مالك.. حينها التفت الحمار إلى مالك ونطقَ قائلاً: أتضحك من الناقِش (ويعني الخالِق) أم المَنقوش (ويعني نفسـه)؟. فخَرَّ مالك سـاجداً نادماً وظل يبكـي أربعين عاماً ويسـتغفر الله على ما اقترف من سـخرية وإهانة تجـاه أحد مخلوقاته.. حتى غفـر له الله بعد أربعين عاماً قضـاها بالنحيب ورعاية كل حمار يراه.

وحدهـا عبارة: «أتضـحك مـن الناقِش أم مـن المَنقوش». كانت تردعنا عن مناكدة صراط، لكننا سرعان ما نعاود الأمر حيث ننسـاها سريعاً، وهكذا إلى أن مات وارتاح منا ومن اسمه. أحَب صراط أختي إسـتبرق لذا كان أشـدنا حماسـة يوم الهجوم على مبنى المحافظة في تكريت يوم قُتل منا ثلاثة ـ جدي يقول استشهدوا ـ، فازدادت إستبرق ذبولاً وهي تشـعر بذنب مقتلهم، ترفض الطعام.. وكلما أجبرتها أمي على شرب حسـاء الدجاج تقيأته. كانت تـزداد هزالاً ونحافةً بحيث كنا نراها في تواصـل ضـمورها وكأنها تبتعد قليـلاً قليلاً في الفراش، كأن الفراش أفق، تغوص هناك وتبرز نتوءات عظام كتفيها ومفاصـل الأصـابع وكرتان عظميتان في رسـغيها.. وكفّت أخوات صراط عن تسميتها بـ (القَصَبة) وعن مناداتهن لصراط: يا عاشق القصبة.. «فليس من الأخلاق الشـماتة بالمريض»، ثم إنها صارت أشد نحافة بكثير مما كانت عليه حين أطلقن عليها هذه التسمية.

قال جدي: دعكُم من الأطباء إذاً، ولا أمل إلا بعلاج الله، الشـافي المُعـافي، وأوليائـه الصـالحين. ولي من صـحبي الأعزاء شـيخ كردي

Twitter: @ketab_n

صـاحب كرامات، في قرية قرب شـقلاوة، وهو من شـيوخ الطريقة النقشبندية ويرجع نسب أجداده إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي ضرب كافراً في الهند بنعله دون أن يتحرك من مجلسه في بغداد.

فأخذناهـا إلى هناك؛ أنـا وهو وأبي. كنتُ أجلسـ معها في مقعد السيارة الخلفي، أسندها على كتفي وأسقيها الماء فيما أستمتع بمشاهدة الحقول الخضراء الراكضة على الجانبين. وبعد عدة توقفات وأسئلة قام بها أبي مسـتفسراً عن الطريـق والقرية وعن بيت الشـيخ، ولما كانت الإجابات حاضرة من الجميع، تأكدت لنا شهرته. صعدنا بالسيارة إلى بيته القائم على سـفح جبل في أطراف القرية، وما إن ترجلنا في باحة داره حتى سمعنا دوي إطلاقة قادمة من جهة بابه، سقطَت على إثرها إسـتبرق من بين ذراعي وتمددت على الأرض مغشياً عليها.. وسمعنا صرخة جدي: الله أكبر.

Twitter: @ketab_n

- ٤ -

لم أخـرُج من شـقتي طـوال ذلك المسـاء. أكلت ثلاث بيضـات وسَـلطَة، فلم تكـن لي رغبة بالطبخ. أمضـيت الوقـت بالتفكير بأبي وبالتذكـر محـاولاً ترتيب ما حدث كـي أفهم أبي الجديـد الذي هنا. نهضـت أكثر مرة عن سريري متوجهـاً إلى المطبخ أُعِد القهوة ومدخناً للسـجائر في النافـذة المطلة على فناء مربع صـغير وعميق تلتف حوله العمارة التي أسـكن فيها وتتشابك فيه، بين النوافذ، حبال نشر الثياب المغسولة. أما قاعه ففيه بيت خشبي صغير لكلب إحدى عجائز الطابق الأرضي.

أنا أصغر سكان العمارة سناً، تليني شابة كوبية سمراء تسكن تحتي، أرضيتي سـقفها. فيما تحتل الشـقق الأخرى عجائز وحيدات إلا من رفقـة كلب يخاطبنه ليل نهار أو من مشـاهدة أخبار فضـائح الفنانين في التلفزيـون، وكن ينظرن إلي حين نلتقي على السـلم بتوجس وريبة بعد موقفي حول برميل الزبالة. وازدادت هواجسـهن حين رفضـت الاجتماع مع مجلس الجيران لمناقشة قضية إصلاح قفل الباب الرئيسي، حين قلت للبواب: لا داعي لمضـيعة الوقت هـذه، قم أنت بشراء قفل جديد وبتركيبه، ثم اجمع ثمنه من سـكان العمارة. ذلك أنني أدركت بأن فائضـ الوقت لديهن يجعل من هذه الاجتماعات فرصـة للثرثرة والشكوى وإرضـاء فضولهن برؤية بقية الجيران عن كثب. قررت ألا

Twitter: @ketab_n

أحضر اجتماعات الجيران هذه منذ العام الأول حين اجتمعنا ذات مساء عند المدخل متزاحمين وبعضنا يجلس على أولى درجات السلّم فيما البواب يتابع إشعال الضوء كلما انطفأ بعد دقيقة، كان محور الاجتماع يدور حول برميل الزبالة، وأن بعضهم لا يدفع المبلغ المُخصص شهرياً للبواب كي يُخرجه ليلاً ويعيده فجراً.

العيون والأحاديث المطلية بالتهذيب تقصدني أنا. وعلى الرغم من طبيعتي الهادئة، وحرصي على تجنب التصادم مع أحد، إلا أنني لا أحتمل أن يستغفلني الآخرون. لذا فوجئ الجميع حين أعلنت صراحة لهم بأنني لن أدفع للبرميل، فالمؤجرون يدفع عنهم صاحب العمارة، كما هو مشار إليه في عقد الإيجار. أما مالكو الشقق فعليهم مشاركته بالدفع. هبت العجائز يتحدثن معاً معترضات، وبشكل خاص المالكات منهن، فيما شكرني المؤجرون الآخرون على هذا التنبيه ومنهم الفتاة الكوبية التي صارت صديقتي إثر ذلك. نقف قليلاً كلما تقابلنا على السلّم. نتشارك معاً بالشكوى من الديكتاتوريات الحاكمة في بلدينا. وتبث لي معاناتها هنا لعدم حصولها على أوراق إقامة قانونية، وتنقلاتها بين عمل وآخر لفترات قصيرة بلا عقود، تتحمل في أثنائها استغلال المديرين لها. دعوتها غير مرة إلى شرب الشاي في شقتي ودعتني هي إلى حفلة عيد ميلادها. كانت تجلب لي هدية السجائر الهافانية الغليظة كلما استقبلت أحد معارفها الهاربين من جزيرة السُكّر، ونتبادل أشرطة الموسيقى، ونقصد بعضنا إذا نَقَص الملح أو السُكّر أو الزيت أو رأس بصل.

توقفَت هي عن الدفع لبرميل الزبالة فأصبحت مثلي موضعاً للنظرات المستريبة من قبل العجائز اللاتي سمعتهن أكثر من مرة يلعن

Twitter: @ketab_n

الحكومة الحالية لفتحها أبـواب الوطن للأجانب ويمتدحن بحنين أيام فرانكو.. بل وسـمعت لأكثر مرة إحداهن تغني في كل صباح النشيد الوطني القديم الهاتف بالعيش لإسـبانيا، متعمدة ترك نافذتها مفتوحة كي يتسلل نشـيدها إلى الجيران. بل وتتعمد أحياناً مدّ ذراعها خارجه علـى طريقة التحية النازيـة. أما البواب فلم يكف عـن معاملتي بمودة لأننـي لم أكف عن إتحافه بالهدايا في أعيـاد الميلاد: قفازات، قميص، سترة، سـجائر وصُـحف. أذكر أنني قد أهديته أيضاً ذات جمعة بعد عودتي من المسجد علبة حلوى عربية ففرح بها كثيراً.

بعـد يومين من اجتمـاع برميل الزبالـة استوقفتني إحداهن على الـدرج، وقالت بلهجة مُهدِّدة: هذا لا يجوز.. يجب أن تدفع.. نحن في إسبانيا وليس في بلدك.. هنا يوجد قانون.

مـاذا أقول لهذه؟!.. وهل سـتفهم إذا قلت لهـا إن أول قانون في الدنيـا قد شرعـه حمورابي العراقي في مسـلته؟.. استفزتني نبراتها، كلماتهـا واختلاج حنكها وشـعيرات الأنـف، فقلت: حسـناً.. إذا كان لديـك حـق علي في شـيء فاشـتكيني وخذي حقـك مني وفق هـذا القانون الذي تتحدثين عنه. سـكتت قليلاً ثـم انفجرت بالبكاء المتوسـل: أنا أرملـة وحيدة وراتب الإعانة قليـل.. كلبي قد مات منذ شهرين ولا أحد يعزيني فيه.. أنا حزينة عليه وأبكيه أكثر مما بكيت على زوجي.. لقد كان سـوني (الكلب) طيباً يستقبلني كلما دخلت بفرح هازاً ذنبه ويرافقني في جولتي اليومية إلى المتنزه.. لقد كان.. فقاطعتها حـين أدركـت بأنها على اسـتعداد لقضـاء اليوم بأكملـه متحدثة عن خصـال كلبها الميت: أوه.. أنا آسف يا سيدة.. أنا مستعجل وبانتظار مكالمـة هاتفية. توقف جريان دمعها وقالـت بلهجة أخرى تماماً: إذن

Twitter: @ketab_n

هل ستشارك بالدفع؟. قلت: لا.. عن إذنك.. مع السلامة. ثم استدرت صاعداً دون أن ألتفت وأنا أسمعها تُدَمدِم خلفي بكلمات من المؤكد أنها شتائم لأنها أغلقت بابها بعد ذلك بقوة.. ماذا أقول لهذه العجوز التي تكبر أمي ربما بعشرين سنة ومع ذلك تبدو أكثر صحة منها، ولا تكف عن طلي وجهها بالمكياج؟.. كيف أُفهمها موت إخوتي وأبناء عمومتي وجدي وحبيبتي عالية وإخصاء أبي والحروب وهي تحدثني باكية عن كلب!؟؟.

راحوا يتحاشونني بعد ذلك جميعاً باستثناء جارتي الصديقة الكوبية، لكنني لم أكف عن مبادرتهم بالتحية حين ألتقي بهم على السلّم أو عند باب المدخل أو عند بائعة الخبز والخضراوات في المحل المقابل. بعضهن لم يكن يرد التحية في البداية ولكن مع مرور الوقت تم الاكتفاء بالتحيات وتركوني وشأني دون أن يدعوني لأي اجتماع بعدها. كانت هذه العزلة تشعرني بالراحة أكثر لأنني أريدها. أدخل شقتي، عالمي، بين الكتب والطبخ والموسيقى وتحسين لغتي الإسبانية، وأقص أية صورة عن العراق أجدها في الصحف. أعلقها على الجدران، لذا ازدحمت بها، على مدى عشرة أعوام، جدران غرفة النوم والصالة والممر والمطبخ. المؤسف أن الصحف لا تنشر إلا صوراً مأساوية عن العراق، كالأبنية المتهدمة والدبابات المحترقة وذباب الأسواق الشعبية وصوراً لصور الدكتاتور في الشوارع والساحات وواجهات العمارات. لذا أحاول أن أنتقي منها الأقل قسوة.. أعلقها في كل مكان باستثناء البقعة التي أصلي فيها خلف باب الصالة. كُلها بالأسود والأبيض ما عدا بطاقتين ملونتين إحداهما بعثها لي صديق من إيران فيها منائر وقباب ذهبية كربلائية والأخرى من تونس فيها نخيل. وغلاف ملون لصحيفة

Twitter: @ketab_n

إسبانية تم تصميمه بالكمبيوتر، خريطة العراق وطائرات حربية تشير مناقيرها إليه.

كنت مكتفياً بعالمي هذا، حيث أمارس هويّتي الأولى، حنيني، شوقي إلى احتضان أمي وإخوتي، إلى زيارة قبر عالية، إلى السباحة في نهر دجلة، إلى أصدقائي، إلى أبقارنا وحميرنا ودجاجاتنا والجبل. أتلهف إلى أخبار منهم، عنهم.. كيف هم الآن؟ ماذا حدث؟.. ماذا يحدث؟.. من مات منهم، من تزوج من؟.. وأنجبوا من؟.. ما هي الأسماء الجديدة هناك؟.. هل مازال الله أو أصابعهم على القرآن هي التي تختار لكل اسمه وآيته الخاصة؟. أسمع الأغاني العربية فقط وأطبخ الوجبات العراقية.. لقد كابدتُ كثيراً كي أصل إلى هنا، وكابدت أكثر كي أجعل إقامتي قانونية وإيجاد مصدر معيشي. صار يعجبني العيش هنا وسط هذه الحرية وهذا السلام لذا فأنا منهم، من هنا، حين أكون خارج شقتي، أهتم بما يهتمون به: مباريات كرة القدم، مصارعات الثيران، أخبار الفنانين، سهرات نهايات الأسابيع.. لكنني من أهلي، من هناك، حين أعود إلى شقتي وحيداً.. وهكذا إلى أن ظهر أبي فجأة، مختلفاً عن الذي تركته هناك أو عن الذي عشت مع ذكرياتي عنه طوال هذه الأعوام. فأين أضعه وفق عالمي المنقسم إلى اثنين؟.. كانت صورته السابقة تندرج ضمن عالمي الداخلي.. الذاكرة والشقة وهذه الصور غير الملونة والدم. لكنني أراه الآن لا ينتمي إليه وفي الوقت نفسه لا أستطيع عده تماماً ضمن عالمي الخارجي.

أصدقاؤه هنا لا يشبهون أصدقائي، وعمله لا يشبه عملي، وسلوكه لا يشبه سلوكي.. بل إنه لا يشبه نفسه، ونساؤه لا تشبه نسائي.. أو على الأقل لا يشبهن اللواتي عرفتهن، فأنا بلا نساء تقريباً أو على

Twitter: @ketab_n

الإطـلاق، والمرأة الوحيدة التي صـاحبتها منذ وجودي هنا هي بيلار التي تعرفت عليها قبل ست سنوات، حين ذهبت، ذات نهاية أسبوع، مـع أصـدقائي - الذين هم زملائـي في العمـل - إلى مرقص، قدمها لي أنطونيو المسـؤول عن مراجعة عناوين الأكشـاك والمكتبات وأسـماء وكميات الصحف التي نوزعها. بيلار موظفة في البريد. ممتلئة وأقصر مني قليلاً، وجهها دائري يطفح بالحيوية والرغبة، مقصوصـة الشـعر كـي تؤكد أن طول رقبتها لا بأس به. بعد تبادل كلمات التعارف عند دكة البار، قالت: هذه أغنية برازيلية جميلة.. أترقص معي؟. قلت: لا أعـرف الرقص.. هل تفهمين ما تقولـه هذه الأغنية؟. قالت: هذا غير مهم، فلا تظن أن كل هؤلاء الراقصين يعرفون كلمات الأغاني أو أنهم يعرفون الرقص.. المهم الإيقاع ثم هز نفسـك كما تشاء فليست هناك قواعد معينة.. تعال. وسـحبتني من كفي إلى وسط حلبة الدخان، إلى دائرة الرقص، تحت كرة الأضـواء الملونة الدائرة فوق رؤوس الدائرين على أنفسـهم.. بالفعل شجعتني تلك المرة على عدم التردد في دخول حلبات الرقص، حيث أمضـينا ساعات من الاهتزاز والتلامس والمرح والضـحك واشتهاء الأجساد المتدفقة بانتفاضاتها حولنا ونسيان ما لا نراه.

تتعرق أجسـادنا، نحتسي السـوائل ونذهب إلى الحمامات كثيراً. لا سـاعة في الجدران طبعاً، لكننا حين شعرنا بالتعب قلنا: كم الساعة الآن؟. فأجـاب أحدهـم: الرابعة إلا ربع. قالـوا: نذهب إذاً. وفي ممر الخـروج همسـ لي أنطونيو: خذ بيـلار معك. قلـت: إلى أين، متى، كيـف، لمـاذا؟. قال: اهـدأ.. هكذا.. كمـا أقول لـك. قلت: ولكن أنا.. فقاطعني: هي التي سـألتني ذلك.. لحظة، سـأجعلها تطلبه منك بنفسـها. وتراجـع مقترباً منها فيما خرجـت أنا منتظـراً أمام الباب،

Twitter: @ketab_n

شعرت بعذوبة الهواء في الخارج، خلوه من الدخان والروائح، برودته وهو يلامس جسدي المتعرق.

كان ماريو بجواري منشغلاً بتقبيل كارمن، مسنداً إياها على عمود النور، وكفاه على مؤخرتها كعادته حتى لو كانت جالسة على كرسيها كسكرتيرة في شركتنا. كلما قبلها مد كفيه إلى هناك. خرج الجميع، يمسحون عرق جباههم، يعدلون من ملابسهم، نافضين ياقات قمصانهم وأسفل آباطها بقصد التهوية. أنطونيو وإيبا وخسوس وإنريكه وماريا وبيلار التي اقتربت مني قائلة: كيف.. هل أعجبتك السهرة؟. قلت: نعم. قالت: وأنا كذلك.. لم يبق مترو الآن، أنا أسكن خارج مدريد في موستوليس وأنت؟. قلت: أنا هنا قريب في شارع فومينتو، قرب ساحة إسبانيا. قالت: أوه.. أنت محظوظ.. تعيش وحدك؟. قلت: نعم. قالت: هل تسمح لي بقضاء الليلة عندك؟. قلت: نعم. ودعنا الباقين وقال أنطونيو: إلى اللقاء في الشركة بعد ساعتين. ثم أضاف مع ابتسامة مقصودة الدلالة: حاول أن تنام ولو ساعة واحدة.

ما إن انعطفنا في الشارع التالي حتى لفت بيلار ذراعها على ذراعي ملتصقة بي في مشيتها. كانت الشوارع خالية إلا من أشباهنا الخارجين من المراقص أو سكارى ومتسكعين يشخرون في مداخل أبواب البنوك، وتمرق سيارة ما بين حين وآخر. قالت بيلار: من حسن الحظ أن عملي في المساء ولذا سأستطيع النوم.. وأنت؟. قلت: أنا عملي يبدأ في السادسة ولذا اعتدت أن أنام القيلولة عند عودتي، من الثانية عشرة حتى الثالثة وأحياناً حتى السادسة مساءً. كنت أشعر بثدييها على ذراعي، لدِنين، وأنفاسها عند كتفي حين تتحدث. تقول: لدينا مراقص في منطقتي بالطبع، لكنني أحب مراقص المركز هنا منذ أن

Twitter: @ketab_n

كنت في الرابعة عشرة من عمري، تعرفت فيها على أصدقاء كثيرين.. كم عمرك؟. قلت: ثلاثون.. وأنتِ؟. قالت: ستة وعشرون.

وصلنا باب العمارة التي أسكن فيها فوجدنا قطة نائمة عنده. نهضَت وابتعدت حين وقفتُ فارداً المفاتيح. قالت بيلار: أوه.. يا حلوة.. أنا لدي قطة أيضاً اسمها كلارا أهدتني إياها صديقتي لاورا في عيد ميلادي قبل سنتين. فتحت أنا الباب وأضأت مصابيح السلم، بينما تواصل هي حديثها عن القطة دون انتظار إجابة، ربما لتملأ الصمت أو لتقرب مسافات التعارف أكثر. أحبها جداً وهي تنام في حضني دائماً، هذا إذا لم يكن معي شخص آخر في السرير طبعاً.. وتضحك. تخيل إنها تغار أيضاً!. نصعد الدرجات بتعب لأن السلم قديم كالعمارة، مصنوع من الخشب بدرجات عالية وغير مريحة بحكم ضيق المكان. صدقني إنها تغار علي من الآخرين أيضاً. للأسف أنا ولاورا قد تخاصمنا منذ تسعة أشهر، تغار على خطيبها مني.. كم بقي لنا؟. قلت: طابقان، أسكن في الطابق الرابع.. الأخير. واصلَت لاهثة: أوف.. لا بأس، نحن شباب، يقال إن صعود السلالم يقوي عضلة القلب. أمسكت بذراعي مستعينة ثم انتقلت قفزاً من السير خلفي إلى السير أمامي بدرجتين، حيث وازت مؤخرتها وجهي؛ كروية ممتلئة يُبرز تفاصيلها سروال أسود محكم الضيق، يغور منتصفه داخلاً في العمق بين الردفين. وتُرى ناتئة بوضوح حواف لباسها الداخلي، إحدى الجهات داخلة أكثر من الأخرى. لون أبيض، فقد رأيت أعلاه خارجاً من أعلى البنطلون حين تنحني صاعدة ويرتفع قميصها قليلاً. تلهث لكنها لا تكف عن الكلام: أنا أسكن في الطابق الثاني ولدينا مصعد لأن العمارة جديدة، إن شقتي ملكي فقد اشتريتها بكفالة البنك استناداً إلى راتبي، أنا أعمل في البريد منذ

Twitter: @ketab_n

خمس سنوات. توقفَت في آخر السلم: آوف.. وصلنا.. أيهما؟. قلت: الباب الأيمن.

اتجهَت نحوه ثم وقفت هناك منزلة حقيبتها السوداء عن كتفها وتاركة لي فسحة لأفتحه، فقلت وأنا أدخل المفتاح: إنها شقة صغيرة متواضعة.. ولكنها تكفيني، أنا مرتاح فيها.. تفضلي. فاندفعت في الممر بعد أن أضأتُ لها النور متوجهة إلى الصالة، تطلعت إلى الجدران المغطاة بمئات الصور التي اقتطعتها من الصحف وقالت: أوه.. إنها مَتحف.. إنها حميميّة.. هذه الصور من بلدك؟.. هل قلت لي أنك من إيران!. قلت: لا، أنا من العراق. قالت: زوج خالتي مصري، اسمه منصور، إنه شخص لطيف. ألقت بحقيبتها على الكنبة، خلعت قميصها الخارجي ذي اللون البنفسجي كاشفة عن لحمها العلوي أبيض حد تشابهه بخيطي قميصها الداخلي المعلقين على كتفيها وبان صدرها عامراً، يفوق بحجمه صدر عالية بالضعف. أعلى النهدين عارٍ وهما يرفعان القماش الحريري الخفيف بلا مشد للأثداء لأن الحلمتين بارزتان بجلاء على طرفي المنخفض الوسطي بين الكرتين حيث يتدلى صليب صغير من الذهب. وراحت تستكشف البيت مطلة برأسها من الأبواب: غرفة واحدة!.. إنها مليئة بالصور أيضاً!.. وهذا هو الحمّام، فأين المطبخ؟.. آه.. إنه هناك في المَمر.. وتوجهَت إليه، فيما جلستُ أنا على الكرسي أخلع حذائي بعد أن شغّلتُ التلفزيون خافضاً صوته، وسمعت صوتها من الطبخ يقول: أشعر ببعض الجوع قليلاً.. وأنت؟.. هل تريد أن أعد قليلاً من السباغتي بالجبن والحليب، لقد علمني ذلك صديق إيطالي، إنها أكلة لذيذة. قلت: لا.. بالنسبة لي سأكتفي بتَمرَتين وعلبة لبن صغيرة. وتوجهتُ إليها في المطبخ، أنزلتُ لها كيس السباغتي، سحبتُ قِدراً صغيراً للطبخ وأوقدت لها الطباخ.

Twitter: @ketab_n

وأخذَت هي كأساً تنقل به الماء من الحنفية إلى القِدر، ثم تعود مكانها لتكسر أعواد السباغتي.

لا تتوقف عن الحديث وتكرار المرور من خلفي حاكة ثدييها على ظهري بحجة ضيق المكان أو واضعة كفها على ظهري برفق. ثم فتحَت باب الثلاجة وانحنَت مطلة إلى داخلها فبان نصف ظهرها أبيض تحت القميص الخفيف الأبيض، وبنطلونها الأسود انسحَب إلى الأسفل أكثر مجروراً بفعل إليَتيها فبانت أكثر شبكة الدانتيلا الشفافة للباسها الداخلي وزَغب أول خط مفترق الردفين البائن أعلاهما. تكويرتان على الخلف ممتدتان حتى أسفل الخصرين على الجانبين. قالت: هذا الجبن ينفع نعم.. وهذه علبة الحليب. مدت ذراعها بهما واضعة إياهما على حافة الطباخ دون أن تُخرج رأسها من الثلاجة وهي تقول: لا أرى لديك نبيذاً.. شربنا كثيراً نعم، ولكنني أشتهي كأساً أخيراً. قلت لها: أنا لا أشرب الكحول، ولكن توجد بيرة بلا كحول إذا شئتِ. قالت: أين؟ دون أن تغير وقفتها فانحنيت خلفها، مسنداً كفي على البقعة العارية من ظهرها ووجهي قرب وجهها. سحبتُ لها علبة من خلف كيس الخبز العربي، فأدارت وجهها وقبلتني على خدي: شكراً.. لماذا لا تشرب الكحول.. منصور يشربه.. أأنت متديّن؟. قلت: لا.. نعم.. إلى حد ما ولكنني غير متشدد. قالت: أنا لا أؤمن بوجود الله.. ولكن أحترم آراء الآخرين.

لم تكن لي رغبة بمواصلة الحديث عن هذا الموضوع الذي أعرف بدايته ونهايته وإلا لسألتها عن الصليب الذي تحمله. فأنا أتوقع الإجابة سلفاً كالقول: إنه لا يعني شيئاً، إنه رمز تقليدي عام، أو إنه هدية من أمي أو صديقتي أو لأنه جميل وبسيط وما إلى ذلك من تبريرات لا

Twitter: @ketab_n

تشـير إلى حقيقة المخفي من طبيعة تدينهم. لا رغبة لي بذلك ستسألني مثـل الجميـع عـن السـطحيات التـي يعرفونها عـن الإسـلام فقط، الـزواج من أربع نسـاء، والحجاب، واللحى.. ومـا إلى ذلك من هذه الموضـوعات التي تعبتُ من النقاش فيها وتوضيحها، وخاصة عندما يعود الذي أقنعته ليسـألك الأسـئلة ذاتها بعد يومـين. قلت: أنا أؤمن بوجود الله.. وأحترم آراء الآخرين. ربما أدركَت عدم رغبتي بالحديث عـن ذلك لذا غيرت الموضـوع: إنـك تتحدث الإسـبانية جيداً..كم سـنة لك هنا في إسـبانيا؟. قلت: خمس سنوات تقريباً. وهي مازالت تتحـرك محتكة بي: وليس لك خطيبة أو صـديقة؟. قلت: صـديقات نعم، زميلاتي في العمل اللاتي رأيتِهن معنا في المرقص، أما خطيبة فلا. سـألت بجد مطلي بالمزاح: لابد أنـك متزوج في بلدك. فأجبتها بنبرة شبيهة وتهكمية: نعم لدي أربع زوجات وأربعون ولداً.. فضحكت. أغلقَت القِدر وقالت: تعال نجلس في الصالة قليلاً حتى ينشف الماء ثم نضيف مثلثات الجبن وبعض الحليب.. سيكون الطعم لذيذاً.

جلسـت أنا على الكنبة فجاءت وجلست ملتصقة بي واضعة علبة بيرتهـا على الطاولة أمامنا بعد أن ارتشـفت منهـا مرتين وقالت حين رأتني أحدق بشاشـة التلفاز: لا شـيء مهـم الآن في التلفاز. وبالفعل كانـت مجرد برامج آخـر الليل الدعائية عن أنواع السـيارات وأجهزة الرياضـة الحديثة. فأطفأته ولفَّت ذراعهـا اليسرى على رقبتي ومدت اليمنـى إلى قميصـي تفتـح أزراره قائلة: لماذا لا تغير ملابسـك، أنت في بيتـك. وضـحكت وهي تشـدني نحوهـا، نحو شـفتيها، فرُحنا في قبلة طويلة تبادلنا فيها الألسـن والشـفاه وهواء التنفس المتسارع. وخلال ذلك كانت كفها تعبث بشـعر صـدري وتنـزل، بينما كنت أفكر بصـدرها الممتلئ منذ رأيته يهتز بالمرقص. أشـتهي تجربة ملامسة

Twitter: @ketab_n

صـدر كبير كهذا، فبادرت دون أن أتوقف عن مص شـفتيها بمد كفي من تحت قميصـها الداخلي الخفيف..أوه.. مـا أعذب ذلك.. لدنان تغوص فيهما أصـابعي وتدور حولهما كفي باتساع. حلمتان شعرتُ بهما ينتصبان. رأس إصبعي يمس رأسيهما، ثم أصابعي تدور على كل الجهات ويُرعشني الدفء بين انطباقة النهدين عليهما.

سَرَت الرعشة في بدني، توتَّرَ وسطي.. أصابعها تنزل باتجاهه وهي تزداد طراوة والتصاقاً بي، تذوب مغمضة عينيها.. ولا أدري كم بقينا هكذا لكننا حين توقفنا ونظرت إلى وجهها وجدتها مبتسـمة متوردة وأكـثر جمالاً بعينـين لامعتين واشـتهاء ثري. قلت: وأنـتِ في بيتك أيضاً، غيِّري ملابسكِ إذا شئت. توجهنا إلى غرفة النوم. فتحتُ خزان الملابس وأخرجتُ لها إحـدى بجامتاي، فوجدتها، حين التفتُ، قد خلعـت بنطلونها ورأيت لباسـها الداخلي الأبيض غائصـاً في امتلاء مؤخرتها والفخذين. بيضـاء، قالت: البجامة فقط، وسأبقى بقميصي هذا. واستبدلتُ أنا أيضاً ملابسي وظهري إليها كي لا ترى الانتصاب المتوتر أمامي.

شـعَرنا بالراحـة والتحرر حيـث راحت هي تتحرك بشـكل أكثر ثقـة وعفوية بين الصـالة والحمّام والمطبخ حيث عـادت إلي بعلبة لبن مفتوحـة وفيها ملعقة صـغيرة. أعطتني إياها وجلسـت في حُجري، ملأته بمؤخرتها التي احتضـنتها كفي ودارت حولها من كل الجهات. استندَت على صـدري تقبلني بين لحظة وأخرى. وأنا أعاود ملامسة ثدييها من فوق القميص.. ومن تحته.

Twitter: @ketab_n

- ٥ -

بعد تفكير متقطع، متناقض، متقلب.. حسمتُ الأمر في نفسي على عدم مضاجعة بيلار، سأتحاشى الوقوع في الخطيئة هذه الليلة قدر المُستطاع. لم أضاجع أحداً من قبلها، ولن أخبرها بعذريتي حتى الآن لأنها لن تصدق أو تضحك أو تخاف.. أو لا أدري، فأنا الخائف أيضاً من الله وجدي وعالية ومن احتمال فشلي وارتباكي وافتقاري إلى التجربة. سأكتفي بما قطفته منها من قُبلات وملامستي لنهدين كبيرين كنت أشتهيهما كلما مرت امرأة بهما أمامي في شوارع الحياة أو كشفت عنهما على شاشات السينما وسواحل البحار الصيفية. فلم أعرف في حياتي مثل نهدي عالية الرائعين، لا كبيران ولا صغيران، طريان متينان ومنتصبان أبداً حتى وهي ميتة.. كأنهما خُلقا استجابة لأمنية: هكذا أريدهما. كانت تطليهما لي بالتَمر وأمصهما تحت شجيرات الغرَب والصفصاف، على الرمل، وسط دغل شاطئ قريتنا القشامر.

انتهت بيلار من تناول طعامها بعد أن ألقمَتني منه مرتين لتجريبه. كان لذيذاً بالفعل. وقلت في نفسي سأجرب إعداده لاحقاً. وهذا ما فعلته حقاً بل وتفننت فيه مغيّراً من أنواع الجبن والحليب. غسلَت الأواني في المطبخ، ثم عادت ودخلت الحمام دافعة بابه دون أن تغلقه. سمعت خرير بولها، تمضمضها، تمخطها واغتسالها ثم خرجَت

Twitter: @ketab_n

وأشارت برأسها إلى غرفة النوم: هيا. قلت: لا.. سأحاول النوم قليلاً هنا على الكنبة ولو نصف ساعة فأنا متعَب ولدينا عمل كثير، عادة، في أيام الاثنين. قالت وقد تبدلت ملامحها قليلاً: ولماذا على الكنبة؟.. السرير يتسع لكلينا. قلت: لا.. فأنا أشخر بقوة كلما كنت مُتعَباً، كما أنني لا أريد إزعاجك بمنبه الساعة. قالت: حسناً.. كما تريد. اقتربت مني وقبلتني من فمي قائلة؛ تصبح على خير، ثم غابت في غرفة النوم. رددتُ أنا عليها الباب، أطفأت نور الصالة واستلقيت على الكنبة.

في الحقيقة لم أكن شديد التعب لأنني اعتدت على النوم نهاراً، وليس لدي نعاس حيث قلبي يزداد خفقاناً لوجود امرأة في بيتي.. وخاصة بعد كل هذه القُبل والملامسات. كنت أرغب بالانفراد بنفسي قليلاً وإعادة تأمل كل ذلك.. يحدث معي هذا الأمر دائماً؛ بعد أي حادث أو حديث مؤثر أختلي بنفسي لبعض الوقت مستعيداً له، متأملاً، مستمتعاً ومستشرفاً آفاقه. قبضتي تعتصر المتوتر تحت بجامتي ورائحة بيلار تملأ المكان. لكن ما حدث أعادني إلى عالية، أنا العائد إليها دائماً، قصة حبي الوحيدة، الأولى منذ كنا صِبية في قرية الصُبح. وذكرياتها غذاء رغباتي الأشهى. هي ابنة عمي وبيتهم جارنا لا يفصلنا عنهم سوى حائط واطئ من الطين كنا نعبُره بالجلوس عليه. تنور خبزهم جار تنور خبزنا لذا كنا نجتمع حول أمهاتنا وهن يخبزن في الفجر أو عند الغروب. هن يتحدثن عن الجارات والأبقار والدجاج والمزارع والأطفال ونحن نلعب حولهن ونختار كِسر الخبز المحمصة هناك. كانت عالية أحب اللاعبين إلي فأنحاز لها دائماً في كل النزاعات وأهدي إليها أفضل كائناتي التي أصنعها من الطين ومنها حصان لونته بالأبيض، باستثناء الذيل أسود مثل حصانهم، لأنها تحب الخَيل. ووالدها هو الوحيد الذي يملك حصاناً في القرية، أما نحن

Twitter: @ketab_n

البقية فليس لدينا سوى الحمير. يسميه (الأسد) على الرغم من أنه حصان.

حين كبرت عالية صارت تركب (أسد) أبيها وتنطلق به إلى شاطئ النهر لتسقيه أو تأخذه إلى الحقل لجلب الخُرج المليء بالبطيخ والباذنجان من أمها.. وكلما رأيتها تمر قربي ثم تبتعد أبقى في مكاني مستعيداً مشهدها على الحصان الأبيض وشعرها الأسود الطويل الشبيه بذيله يراقص الهواء خلف رأسها مثل جناح طائر سعيد. كانت أختي إستبرق هي مرسال الحب بيننا، لأننا حين كبرنا صار من الصعوبة اللعب مع بعضنا أو الانفراد في اللقاء، وقرية (الصبح) مكشوفة محتشدة بالعيون، الكل يعرف الكل ولا يُخفى شيء على أحد.

حين قلت لإستبرق أول مرة بأني أحب عالية، فرِحت كثيراً وانطلقت راكضة صوب بيت عمي. هي النحيلة المريضة دائماً، رأيتها، من النافذة، تعبر الجدار الطيني بقفزة واحدة ثم تغيب. أما أنا فبقيت في حجرتي مرتجفاً، أغطي وجهي بالمخدة وأعصره.. لا أدري ماذا أفعل، وقلبي يدق بشكل لم أعهده من قبل إلا في حالات الخوف من جدي. وعلى الرغم من أن إستبرق قد عادت بعد نصف ساعة لاهثة وأغلقت الباب خلفها، إلا أنني كنت أشعر بأنها قد تأخرت دهراً. لم أستطع قراءة شيء على وجهها ولكنني كنت أشعر بأنها تحمل الإجابة التي ستجعلني سعيداً أو حزيناً في لاحق أيامي.

دارت في الغرفة متخابثة عامدة وهي تشبك أصابعها وتطقطقها تباعاً. رأسي يتابع رواحها ومجيئها مثل بندول ساعة جدارية. أمسكتها من ذراعها حين مرت بجواري وأنا مازلت أجلس على حافة السرير لا أقوى على الوقوف.. لأنني أرتجف، ولم أستطع الكلام فزفرتُ

Twitter: @ketab_n

سائلاً: هـاه؟؟.. نظرَت إلي بمعانٍ كنت أراها كثيرة، ثم أدارت وجهها صوب الجَرّة الصغيرة التي صنعتها بنفسي من الطين ولونتها بزخارف من أزهار وفراشـات ودوائر في دوائر كالعيون، وكنت أعتبرها أفضل أعمالي الفنية وأحبها إلي، لذا وضعتها قرب رأس سريري فوق صندوق الكتب وفيها أقلامي. قلتُ: ماذا؟.

ابتسـمت إستبرق وأشـارت بسـبابتها إلى الجَـرّة دون أن تنطق، وفهمـت أنها تريـد هذه الجـرة مقابل كلامهـا. حاولـتُ التغابي أو تحييدها عن ذلك فسـألتُ: ماذا.. هل وجدتِها؟. ظل إصـبعها يشـير إلى الجـرة بإصرار. فمددت ذراعـي دون أن أنهض، قلبتُها وأخرجت أقلامي منها، وضعتها على سطح صندوقي ودفعت بالجرة إلى إستبرق، فابتهجَـت محتضـنة لها، وقلت: هـاه.. ماذا؟.. تكلمي؟ يا إسـتبرق يـا عيني.. الله يحفظـك.. إنك تذبحينني. لكنها واصـلت صـمتها المتخابث وابتسـاماتها الدالة، ثم مدت كفها لي و لم أفهم. دفعَتها أكثر إلى فمـي، فعرفت أنها تريد مني تقبيلها، فقبلتها، لكنها هزت رأسـها بالنفي وأشارت إلى الأرض. فتذكرت أنها تحضر معنا حكايات جدي الليلية عن الفرسان القدامى العائدين من المعارك بالانتصار وهم يقعون بركبهـم على الأرض ويقبلون أصـابع حبيباتهم. ففعلت، ثم تطلعتُ إلى وجههـا من الأسـفل فكانت مرتفعة فعـلاً. وهطلَت على وجهي محتضـنة رأسي دون أن تترك الجرة من يدها. أمطرتني بالتقبيل والفرح قائلة: إنها تحبك أيضاً يا سليم.. إنها تحبك.

وهكـذا كانـت أولى بداياتي مـع كتابة الرسـائل والشِـعر. أُطرز حافات الرسـائل برسوم الفراشات والقلوب المخترقَة بالسهام وعليها الحرفان الأولان من اسـمينا. وكنت أتسلل إلى غرفة أمي، في غيابها،

Twitter: @ketab_n

لأرش على رسائلي من زجاجات عطرها التي يجلبها لها أبي هدايا من أصدقائه الألمان. يقول جدي في قصصه عن الفرسان أنهم كانوا جميعاً عشاق وشعراء وأكثر من يعجبه منهم عنترة ابن شداد ويتمنى رؤيته لأن النبي قد تمنى ذلك أيضاً. عنترة كان مثلي يحب ابنة عمه أيضاً، وهو يكتب لها الشعر، لذا كتبت قصائدي الأولى لعالية. أصف نفسي فيها فارساً شجاعاً لا يهاب الموت، أقطع من رؤوس فرسان العدو ألفاً بضربة واحدة من سيفي، وأصارع الأسود المتوحشة فأهرس رؤوسها بقبضتيّ كمن يهرس بيضاً. أقطف لها نجوم السماء وأصنع منها قلادة يتوسطها القمر، أعلقها في رقبتها، وأجبر الناس على الاعتراف بأنها أجمل نساء الكون. فيما أصف عينيها، على الرغم من أنهما صغيرتان مثل فتحات إدخال الأزرار في القمصان، لذا كانت أمها تناديها مدلِّلة أو غاضبة: يا صِينية. لكنني شبهتهما ببحيرتين واسعتين من المرجان، عينان فيهما كبرياء أسد ورِقة غزالة، وشَعرها حرير يغار منه الحرير، وبأنها هي التي علمت أغصان الأشجار كيف تتمايل عند هبوب الريح بدلال مثل مشيتها، وبأن عالية هي ملكة الدنيا لا يرى تاجها غيري وسأجعلهم يرونه بقوة سيفي..

كانت إستبرق تقرأ رسائلنا عند نقلها وتقرأ قصائدي بدهشة متمنية لو أن صراط يستطيع كتابة الشِعر مثلي. أما عالية فلم تشر إلى قصائدي في رسائلها أبداً.. لم أستطع الانفراد بها طوال أعوامنا في قرية الصُبح على الرغم من أنني كنت أترصدها ليل نهار من نافذتي وأتعمد خلق المصادفات لأحييها أو أختبئ فوق الجرف لأراها حين تأتي إلى شاطئ النهر على حصانهم لترويه وشَعرها طائر خلفها مثل جناح طائر سعيد. وأرى التماع ساقيها حين تخوض في الماء، تكويرة ردفيها وهي تنحني لتغرف وتشرب أو تغسل شعرها. وكنت أكثر

Twitter: @ketab_n

من يحزن حين يشتد المرض على إستبرق ويطرحها في الفراش، حيث تنقطع الرسائل من عالية وإليها، فأجلس قرب رأس إستبرق آخذاً كفها النحيفة الساخنة بين كفي، أقبل أصابعها وأبكي.. عادة تعلمتها من جدي الذي ينكسر قلبه وظَهره كلما رأى أحدنا طريح الفراش، يجلس قرب رأسه، يتلمس كفيه وجبهته بحنان فائض ويتلو آيات من القرآن وأدعية الشفاء متوسلاً إلى الله كأنه يراه. لذا كانت أيام مرضنا هي أكثر أيامنا قرباً إلى جدنا الذي نراه في أثناء صحتنا شديد المَهابَة والقسوة على الرغم من أننا لم نره يضرب أحداً.. لكنه أشد علينا حناناً من أمهاتنا عندما نمرض.. إلى الحد الذي كان يُشعرني أحياناً بتمني المرض كي أحظى بلمسات أصابعه الحنونة.

إستبرق أحب أخوتي إلي وأقربهم إلى روحي، وهي تشاركني لعبي، ترتب لي غرفتي، تقلم لي أظافري وأقلم لها أظافرها وعند انشغال أمي عنها أساعدها بتمشيط شعرها. تحفظ لي قطع الحلوى في غيابي وأحفظ لها قطع الحلوى في غيابها، نتشارك في أسرارنا دون بقية إخوتنا. أنقل لها رسائل حبها إلى صراط وتنقل رسائل حبي إلى عالية. الكل في عائلتنا يعرف انحيازنا لبعضنا وحميميّة محبتنا، لذا اختارني جدي وأبي لأكون معهما، دون سواي، حين قررا أخذ إستبرق إلى الشيخ الكردي لمعالجتها. ولذا سقط قلبي معها حين سقطت مني بعد سماعنا لصوت طَلقة، أول ترجلنا في باحة ذلك الشيخ، وصيحة جدي: الله أكبر.

جثوتُ قرب رأسها على ركبتي فزعاً، أتفحصها ولا أرى دماً، فأهز كتفيها وأناديها علها تفتح عينيها: إستبرق..إستبرق. حبيبتي. فجاء الشيخ الكردي صوبنا راكضاً من جهة الطلقة، من جهة البيت، حاملاً بندقية صيد قديمة مازالت فوهتها تدخن وهو يصيح بي: اتركها..

Twitter: @ketab_n

اتركها يا ولَد. وردد جدي بالصيحة ذاتها: اتركها يا سليم. فرفعتُ كفي عنها دون أن أنهض أو أبتعد، ناظراً إليهما وهما يتعانقان مثل صبيّان فاز فريقهما بالمباريات. كانا بالسن نفسها، نحيفين، متساويين في القامة، لحيتان بيضاوان، جدي يرتدي بدلته المفضلة للمناسبات نسميها (زبون) وعِقال، والكردي ببدلته عريضة السروال وعلى وسطه لف حزام من القماش شبيه بقماش عمامته، كانا في أوج أناقتهما وعناقهما. يربتان على أكتاف بعضهما ويرددان العبارة ذاتها: أوه.. أخي وحبيبي في الله الملا مطلق. أوه.. أخي وحبيبي في الله كاكه حمه. فيصحح الكردي لجدي: لم أعد حمه فقد غيرت اسمي إلى عبد الشافي منذ أن منَّ الله علي بكراماته. صافحه أبي وقال جدي: هذا ابني الكبير نوح. ومسح على رأسي فقال جدي: هذا حفيدي سليم وهذه أخته إستبرق.

تمتم الشيخ: ما شاءالله.. ما شاء الله. ثم التفَت إلى الخلف ونادى على فتاة تقف في الباب: هاتي الماء. فجاءت راكضة بثياب ذات ألوان كثيرة كالفراشات. وعلى آخر رأسها شال لامع. أخذ منها طاسة الماء وسألها: الملح. فمدت قبضتها الأخرى إلى كفه المفتوحة وأرختها ليتسرب منها الملح. راح الشيخ يذروه على الماء في الطاسة وهو يتمتم بكلمات لم نفهمها، يغمض عينيه ويقرأ من قلبه، ثم بصق في الماء وواصل قراءته الغامضة. غرس إصبعه السبابة في الماء، بمثابة ملعقة، يحركه كمن يحرك السُكّر في قدح شايه. غطّس كفه كاملة في الماء ثم راح يدور حول جسد إستبرق المسجى نافضاً فوقه بلل أصابعه ويقرأ، يدور، يرشها بالرذاذ ويقرأ، حتى لم يبق في قعر الطاسة إلا القليل فوقف عند رأسها قبالتي وانحنى.. سكبه كله على وجهها وصاح بصوت أجفَلني: الله حيّ.

Twitter: @ketab_n

رأيت إستبرق تفتح عينيها وتنظر إليه. فابتسم لها قائلاً: أهلاً يا حلوة. ثم نهض قائلاً: هاتوها إلى الداخل. وسار نحو جدي، ذراعه على كتفيه قائداً إياه صوب مدخل البيت. وتعاونا أنا وأبي والفتاة الفراشة على إنهاض إستبرق. سارت خطواتها الأولى متكئة علي ثم شعرتُ بأنها تسير بمفردها حتى دخلنا من بوابة جميلة امتزج فيها الخشب والنحاس المعقوف والزجاج الملون.

الصالة واسعة تشبه مسجد، البسط والسجادات الوثيرة تغطي أرضيته، ووزعت عليها الوسائد في كل الاتجاهات. ثمة عمودان بلون جذوع الأشجار في الوسط، موقد فحم غائر في الجدار تحت مربع مدخنة يأتي من خلالها صوت هديل الحمَام الحاط على أعلاها في عش اللقالق المُهاجرة. أبواب كثيرة في الجدران المتباعدة. جلس جدي والشيخ متجاورين دون أن يفكا اشتباك كفيهما. وفي صدر المجلس فِراش مُعَد بوسائد عالية وشرشف أبيض مطرَّز الحواف بأزهار النوار. مدَّدنا عليه إستبرق، غطتها الفتاة وجلست أنا عند أقدامها، فيما جلس والدي على بعد متر مني. قال الشيخ للفتاة شيئاً بالكردية لم نفهمه. لكن جدي، الذي فاجأني بأنه يعرف اللغة الكردية، اعترض: لا.. لا داعي لإعداد الطعام يا شيخ، طريقنا بعيد ونريد العودة قبل غروب الشمس. توقفت الفتاة مستفهمة. فكرر عليها الشيخ بالكردية وانصرفت، فيما قال جدي: حسناً كما تشاء. وعلق الشيخ: لدينا ديك رومي ممتاز يليق لحمه بالأعزاء.

فكّا اشتباك كفيهما وربت الشيخ على فخذ جدي مغيّراً وجهة الكلام: لقد نحفتَ كثيراً، ولولا تذكري الدائم لك وأيامنا في القتال مع ابن عمنا رشيد عالي لما عرفتك. قال جدي: إنه تقدم السن

Twitter: @ketab_n

ومرض السُكّر. علق الشيخ مرحاً: لا بأس، هذا حق.. كنت تمص السُكّر طوال حياتك وآن له أن يمصّك. فضحكنا جميعاً فيما مد الشيخ كفه إلى جبهة إستبرق التي كانت تنظر إلينا بصمت. عيناها جميلتان صافيتان، على الرغم من صُفرة خفيفة تشوب بياضهما، لامعتان أدهشني سحرهما كأني لم أرهما من قبل. وقال الشيخ: كانت مسكونة بعفريت، لعنه الله، يتغذى على دمها فقتلته. فاجأني وأبي قوله بينما قال جدي ببرود العارف: ألا لعنة الله على إبليس وأتباعه.

فتحَت الفتاة الفراشة باباً، كانت تصطخب خلفه الأصوات، داخلة بصينية مليئة بأقداح الشاي التي يتعالى بخارها، وفر معها من فتحة الباب جمع أطفال يتراكضون بضجيجهم منطلقين صوب فناء الدار لاعبين. دارت علينا بالصينية فتناولنا منها أقداحنا، وابتسمَت لي حين انحنت أمامي فشممت عطرها المصنوع من عروق النباتات. حين انسحبت أكمامها كشفتا عن ذراعين بيضاوين كشرائح الجبن فيهما أساور رفيعة من الذهب وساعة إلكترونية رخيصة. وحين انحنت أمام الشيخين قال الآخر لجدي: هذه كولاله ابنتي الصغرى.. آخر العنقود. وضحك فيما علق جدي: الله يحفظها. وسألها والدها: أين وضعتِ القلم والدفتر يا حلوة؟. فأشارت برأسها إلى الرف خلفه ناطقة كلمة بالكردية. فالتفتَ وتناول دفتراً قديماً ورقه أصفر شبيه بأوراق بضعة كتب كانت هناك عرفت منها القرآن فقط. اقتلَع ورقة من الدفتر، أسندها عليه، على فخذه وهمَّ بالكتابة ثم سأل: قلت ما اسم ابنتك؟. فأجبت أنا أسرع من جدي: إستبرق. كتب وسأل ثانية: وما اسم أمها؟. ترددت لأننا لم نعتد نطق أسماء أمهاتنا، وبما أنني أناديها أمي دائماً لذا لا يحضرني اسمها بسرعة حضور اسمي مثلاً أو حضور أسماء إخوتي. كذا بالنسبة لنا اسم جدي لأننا نناديه «أبي»

Twitter: @ketab_n

صغاراً وجدي كباراً، والآخرون ينادونه: يا ملا. أجابه أبي: مريم. فسألتُ أبي هامساً: لماذا اسم أمها وليس اسم أبيها أنت؟. سمعني الشيخ عبدالشافي فأجابني من هناك: كلنا يوم الحشر ننادى بأسماء أمهاتنا، لأن الأم واحدة وأكيدة، أما الأب فقد يتعدد وغير أكيد. ثم استغرق الشيخ بالكتابة، مستعيناً بين الحين والآخر بكتب قديمة يسحبها من الرف الصغير خلفه.

نظرتُ إلى إستبرق فوجدتها تنظر إلي وإلى أبي، فابتسمتُ لها ثم مددت لها كفي حين رأيت أصابع كفها في آخر ذراعها الممدة خارج الشرشف تومئ لي. كانت كفها دافئة تُسرِّب الحنان وهي تشبك أصابعها بين أصابعي. أغمضَت عينيها قليلاً ثم فتحتهما على أبي الذي اقترب من وجهها قائلاً بصوت خفيض: كيف حالك حبيبي؟. فهزت رأسها بإيجاب. انحنى على جبهتها طابعاً قبلة خفيفة ثم ابتعد بعينين دامعتين. كان جدي ينظر إلى ما يكتبه صاحبه بفضول وشفاهه تتحرك قارِئة.

حين انتهى الشيخ من الكتابة راح يطوي الورقة بشكل خاص، يثنيها ويثنيها على ثنياتها، حتى جمعها كلها على شكل مثلث صغير أغلقها بدس زاويتها بين فتحات الثنايا. أعاد الدفتر إلى الرف وسحب من هناك بَكَرَة خيط سحب منها نصف متر تقريباً. أدخل طرف الخيط في أحد رؤوس المثلث ثم ربط الطرفين فصار قلادة، مدها إلى إستبرق قائلاً: تعلقينها دائماً في رقبتك ليلاً نهاراً ولا تخلعيها إلا عند الاستحمام. وبينما كنت أعين إستبرق على تعليق قلادتها الورقية، سمعت جدي يقول: لدينا بقرة مريضة، فاكتب لها رقيّة أيضاً يا شيخ. قال الشيخ وهو يعاود التفاته لأخذ الدفتر من وراءه:

Twitter: @ketab_n

على عيني ورأسي.. تكرم.. ماذا بها؟. وراح جدي يفصل له أعراض مرض بقرتنا الحمراء. وبعد انتهائه من قلادة البقرة ـ التي سلمها لجدي قائلاً: ربنا يجعل فيها الشفاء ـ وانتهائنا من احتساء أقداح شاينا، دنا الشيخ من إستبرق، فتح جفنيها بأصابعه محدقاً في عينيها وقال: بقيت خطوتان بسيطتان وينتهي كل شيء.. ستصبحين بعدها عروساً تمام التمام. وصاح باتجاه الباب البعيد: كولاله.

فأقبلَت الفتاة الفرَاشة. حدثَها بالكردية فانحنت على أختي وعرفنا أنه يريد نقلها إلى منتصف مربع الجلسة، فنهضنا أنا وأبي لنمددها على السجادة في المنتصف. دار الشيخ حولها، وكولاله تسوي من فستان إستبرق مُحسنة تغطيتها، ثم أمسكت بأقدامها حين راح الشيخ يمد ذراعيها على الأرض بموازاة رأسها، ثم أفرد أصابع يديها السبابتين وألصقهما ببعضهما وناداني: تعالوا انظروا إنهما غير متساويين.. هذا طبيعي فالإنسان مثل السيارة يحتاج إلى إعادة موازنته بين الحين والآخر.

كانِ الشيخ بالغ الحيوية، يتحرك برشاقة وخفة. جلس عند رأسها، مد ساقيه وأسند قدميه على كتفها، ثم راح يسحب ذراعي إستبرق بقوة ويقارن بين سبابتيها، في حين استمرت فتاته الفراشة بالقبض على قدميها بإحكام. سحَبها لأكثر من مرة وإستبرق تغمض عينيها مع كل سحبة دون أن تتأوه. ثم هتف الشيخ: تعالوا.. انظروا.. ها هما الآن متساويان.. سأوازنكم جميعاً، فكلنا نحمل أمراض خفية لا تؤلمنا لكنها تتراكم.. تعال يا ولَد. ناداني بعد أن أعِدنا إستبرق إلى الفراش وممددتُ مكانها على السجادة في المنتصف، مددتُ ذراعي، فناداهم: انظروا. فيما كنت أنا أستشعر ملمس الفتاة الفراشة لقدمي..

Twitter: @ketab_n

ما طعم ملمس كفيها البيضاوين!؟.. كان شايها لذيذاً. كان الشيخ يعت ذراعي اليسرى بقوة، كرر الأمر ثلاث مرات وقال: خلاص. فأقمت ظهري لأجد وجه الفتاة قرب وجهي دون أن تسحب كفيها عن قدمي وهمست لها؛ شكراً، فابتسمَت.

نهضتُ واستلقى جدي مكاني على الفور. كنا جميعاً كصبية يلعبون بمرح، وروحية الشيخ تبعث على ذلك. وحين جاء الدور على أبي ضحكنا جميعاً بما فينا إستبرق حين نظرنا إلى جثته الضخمة وكرشه الذي يرفع دشداشته كخيمة. جلست أنا ملتصقاً بالفتاة قابضاً على قدم وهي على أخرى فشممت عطر النباتات الفائح منها بوضوح أكبر. وعلق جدي قائلاً لصاحبه: وهذا كيف ستسحبه؟. أجاب الشيخ باعتداد: سحبت من هو أسمَن منه. وحين قارن سبابتيه قال: انظروا إن جسده أكثر أجسامكم توازناً، أصابعه تكاد تكون متساوية، لابد أنه يعمل كثيراً. العمل صحة.

حين عُدنا إلى أماكن جلوسنا، توجه الشيخ بالحديث إلى ابنته، فأتته بصرة صغيرة وتوجهت إلى الباب الخارجي، نادت.. فجاء الأطفال راكضون، فيما حملت هي أقداح الشاي الفارغة وانصرفَت. وقف الصغار أمام الشيخ طابوراً، كلما وصل أحدهم أدار له ظهره ونظر الشيخ خلف أذنيه، ثم يقرب قفاه من عيني إستبرق قائلاً: انظري. كلهم قد شرَّحتُ آذانهم.. إنه شيء بسيط، لا يوجع.. إلا وخزة بلكاد ستشعرين بها، ولو كان جرح أحدهم ملتئماً لشرحتُ أذنيه أمامكِ. ينطلق كل طفل راكضاً بعد الكشف إلى الخارج، بدا أنهم معتادون على ذلك.عادت كولاله تحمل في يديها مغسلة نحاسية وإبريق ماء. وضعتهما في المنتصف، ثم توجهت إلى إستبرق، أجلستها، أزاحت

Twitter: @ketab_n

شالها، ورفعت شعرها إلى الأعلى، وقطفت قرطيها الفضيين، هلال وسطه نجمة تتدلى منه أقمار صغيرة يتوسط كل منها خرزة بلون مختلف. نظرَت إليهما ووضعتهما في كف إستبرق الملقاة في حجرها. وعلق الشيخ: لا تضيعيهما حتى يُشفى الجرح. اقترب من ظهرها وهو يستخرج من صرته شفرة حلاقة. ارتجف قلبي وتمنيت أن لا تَرى إستبرق الشفرة، فلم يحدث، لأن الشيخ كان قد قصد ذلك.

مد أصابع إحدى كفيه إلى أذنها وطواها، مد الشفرة هناك وحز خلف الأذن بسرعة وخفة، ثم عاجل لتكرار الفعل بالأذن الأخرى. عند لحظة الجرحين أغمضت إستبرق عينيها وصرَّت فمها فقط. قرَّب الشيخ صُرته، وراح يأخذ قليلاً بين طرفي إصبعيه من مسحوق أصفر كان فيها، ويسد به الجرحين الذين أحدثهما، ثم أخرجَ عود ثقاب، بلله بلسانه، غرسه في المسحوق وراح يُكحل به عيني إستبرق حتى تركهما مغلقتين. ثم قرب الصُرة مفتوحة من أنفها آمراً: استنشقي، استنشقي بقوة. وبعدها ربط الصرة ووضعها جانباً.

استدارت كولاله وقرَّبَت المغسلة إلى صدر إستبرق والشيخ يقول: خلاص انتهى كل شيء، اغسلي وجهك.. وتمخطي.. تمخطي. ثم عاد إلى جلسته السابقة جوار جدي شارحاً ما قام به: هذا لعلاج مرض (أبو صفار)، فتحتُ شراينها ووضعت الدباغ، مسحوق قشور الرمان الجافة، مخلوط معه مسحوق حبات الشجرة المضيئة. هذه نبتة لا توجد إلا في قمم جبال حصاروست، تُثمر أجراساً صغيرة مثقَلة بحبوب صغيرة، ولكل جرس لونه الخاص الذي يضيء ليلاً، في الجرس سبع حبات، وأدفع للمتسلقين خروفاً مقابل كل جرس.. إنها شجرة نادرة ويحتاج الوصول إليها والبحث عنها جهداً ومغامرة.

Twitter: @ketab_n

نعم تضيء بأجراس ملونة.. مثل شجرة أعياد الميلاد عند النصارى. فسأل جدي: وما هذه؟. وتطوع أبي ليشرح ذلك دون أن ينظر في عيني جدي: نعم رأيتها عند أصحابي الألمان وهم يحتفلون في الليلة الأخيرة من السنة. شجرة علقوا فيها أضواء ملونة وأجراس ورقية وأشياء أخرى.. هدايا وجوارب ملونة.

هدأت الجلسة بعد ذلك. على وجه إستبرق أمل وارتياح. نحن ننصت جميعاً إلى حديث الشيخين فيما تأتينا رائحة الطعام من الباب الموارب. الشيخ عبدالشافي تحدث كثيراً عن زبائن كثر يأتونه من أنحاء العراق ومن إيران وتركيا والكويت والسعودية والأردن وبادية الشام، يعالجهم، يستضيفهم، بعضهم ليومين ولا يأخذ منهم مقابلاً لذلك، لأنه يقول: هذا فضل من الله وأجري عليه هو. ثم نصح جدي لمعالجة مرض السُكر بتناول خبز الشَعير، وتقليل الملح، وترك السُكّر. «اشرب الشاي مُرّاً، وجرعة من عصير شجرة الشيح عند صلاة الفجر.. إنه مُر.. مُر جداً كالعلقم ولكنه سينفعك، صدقني وستعود صحتك كالحصان.»

كان الحديث بينهما يمتد، لهما الكلام ولي ولأبي الاكتفاء بالاستماع، وهما مسترسلان حتى حول مائدة الديك الرومي المحاطة بأكواب اللبن. صُفت أجزاؤه المشوية على كومة الرز المخلوط بالزبيب وأنواع البهارات. تحدثا عن حقول التبغ وأزهار عباد الشمس في كردستان وعن الأبناء والأحفاد والملائكة وأصحاب رسول الله وعن أصحابهما المشتركين، ذكرياتهما أيام محاربة الإنكليز، وشتما الحكومة الحالية. وبعد شاي العصر وقفت سيارة أخرى في فناء الدار ترجلت منها عائلة كردية؛ أطفال وعجوز قالوا إنها قد أصيبت بعين حاسد.

Twitter: @ketab_n

ودعنا الشيخ، تعانقا هو وجدي الذي دعاه لزيارتنا إلى القرية فاعتذر بأنه لا يستطيع ذلك لأنه لا يعرف متى يبعَث الله له بمريض عليه واجب علاجه. وتعال أنت لزيارتي، فوعده جدي.. الذي لم يستطع الإيفاء بذلك لاحقاً.

في الطريق واصل جدي حديثه لنا عن ذكرياته المشتركة مع صديقه الشيخ. إستبرق كانت أقل طلباً للماء وأبي لم يكن مقتنعاً بما رآه من علاج لكنه كان يتظاهر بالرضى طاعة لجدي. لذا سأل أصحابه الألمان حين عاد إلى كركوك فأصابتهم الدهشة واتصلوا هاتفياً بصديق طبيب لهم في برلين فقال: هذا علاج ناجح أيضاً، إنه لمرض (اليرقان) حيث يذهَب مسحوق قشور الرمان في الدم إلى الديدان ويطردها. واطمأن أبي فيما كنتُ حائراً برسائلي إلى عالية طوال اليومين التاليين قبل نهوض إستبرق، إلى أن وجدنا مخبأً لنا وسط الدغل تحت أشجار الغرب قرب الشاطئ، فصرنا نسميه عشنا وفيه عرفنا قُبلاتنا الأولى ومص الأصابع والشفاه المطلية بالتَمر.

Twitter: @ketab_n

-٦-

قررتُ أن أذهب هذه الليلة، أيضاً، إلى مرقص أبي، علّي أجد فرصة مناسبة للحديث معه أو حتى نتفق على موعد أكيد أو على الأقل كي أعرفه أكثر.. هكذا حسمت الأمر وأنا أقترب من نافذة المطبخ المطلة على العمارة الجارة المتهرئة السقف بحيث اتخذت الحمائم أعشاشاً في مزاريبها. وكم حاولتُ تخريب هذه الأعشاش بعصا المكنسة لكنها كانت أكثر غوراً مما أستطيع الوصول إليه، لذا أكتفي بلعن الحمَام القادم من (ساحة بوابة الشمس) وسط مدريد ومن (ساحة إسبانيا) حيث تمثال الكيخوته وتابعه سانتشو، اللذين طالما كنت أجلس أمامهما مطيلاً التحديق أيام تصاعد الشوق إلى جدي وأبي، كأنهما هما في كل شيء!. فيما الحمائم حولي تأكل من أكف العجائز المتقاعدين المسترخين على المقاعد ومن بسكويت السائحين ثم تأتي لتذرق على ملابسي، ومن تحتها ملابس جارتي الكوبية. بل إنها تدخل أحياناً إلى المطبخ وتذرق في المواعين وعلى سطح الثلاجة حيث فتيت الخبز. وقد أكدت لي بيلار، حينها، أنها شهدتها بنفسها حين أفزعتها انطلاقة زوج حمَام أول دخولها إلى المطبخ عند أول استيقاظها صباح أول ليلة نامت فيها هنا، قائلة: لقد نسيتَ أنت نافذة المطبخ مفتوحة، لماذا لا تشتري لك قطة. أعرف محلاً فيه قطط جميلة.. جمييييلة.. يا الله ما أجملها..!.

Twitter: @ketab_n

كنت قد تركتها تلك الليلة نائمة في فراشي فيما أمضيت الوقت في الظلمة متذكراً عالية.. تفاصيل انفراداتنا في المخبأ الذي اكتشفناه وسط الدغل وأسميناه عشنا. حدث ذلك في اليومين التاليين لعودتنا بإستبرق من بيت الشيخ الكردي الذي شرح أذنيها، فمنعتها أمي من الخروج وأعمال البيت ووضع قرطيها حتى تتماثل للشفاء، كنت أدور باحثاً عن عالية كي أعطيها قصيدة جديدة كتبتها لها ورسالة. أكرر المرور جوار منزلهم، فلا أرى الحصان، ثم من بين بيوت القرية وعرازيلها وصرائفها. أجوب جزيرتنا القشمرية مخترقاً الغابة صوب الشواطئ من كل الاتجاهات حتى وجدتها في الطرف الشمالي الملتصق بالجبل، خائضة في الماء تغسل وجهها ورأس الحصان خلفها يطيل الشرب. اضطربت وترددت حتى فكرت بالرجوع أو الاختفاء، لكنها التفتت فرأتني وأوقفتها المفاجأة. قالت: آه.. مرحباً سليم. ثم تلفتت حولها إلى كل الجهات وتلفتُ أنا أيضاً. لم نر أحداً. قلت وأنا أُخرج الورقة المطوية بعناية من جيبي فائحة بعطر أمي: أريد أن أعطيك الرسالة، إستبرق لا تستطيع الخروج من البيت، أريد الحديث معك.. هل أستطيع؟. قالت: أدخل في الدغل بسرعة.

تراجعتُ راكضاً لبضعة أمتار ووقفت في طرف الغابة مطلاً برأسي إليها. انتظرَت هي حتى ارتوى حصانها، ثم أخرجَت حبلاً من الخُرج الذي يحمله. شبكت رأسه بالرسن دون أن تكف عن تلفتها المتفحص للجهات. وقادت الحصان قادمة باتجاهي تغوص قوائمه في الرمل مثلما تغوص ضائعة في ارتجافات قلبي الكلمات التي كنت حضّرتها للقول. توغلنا في الغابة فاتحين درباً للحصان خلفنا حتى ربطناه على جذع شجرة غَرَب ضخمة، هناك يأكل من العشب المزدحم تحتها، ثم درنا في المكان حتى وجدنا فسحة دائرية من الرمل ظليلة بفعل

Twitter: @ketab_n

كثافة الأشجار المتشابكة في سمائها، فيما شجيرات أفتى من الأثل والسلماس والقصب تحيطها، يصل ارتفاعها إلى صدورنا. ولذا حين جلسنا على دائرة الرمل صارت أعلى منا بقليل. حدقنا ببعضنا وكنا لأول مرة بهذا القرب.. كنا نسمع تسارع أنفاسنا ونبضات القلبين. سألتني عالية عن حال إستبرق فرُحت أسرد لها تفاصيل رحلتنا العلاجية مستثمراً ذلك في استعادة صوتي وهدوئي. كنا نتحدث بصوت خفيض فيه عذوبة استيداع الأسرار، وبعد الانتهاء أعطيتها الرسالة والقصيدة وسألتها: لم تقولي لي رأيك في قصائدي التي كتبتها لك. قالت: إنها غير دقيقة.. يعني إنها كذب في كذب.

صدمني قولها فوجدتني أضع كفي على صدري وأقسم لها صدق مشاعري نحوها. لكنها لم تدعني أواصل، فأوضحت: لا أقصد بأن مشاعرك غير صادقة، وإلا لما تبادلت معك الرسائل ولما جئت معك إلى هنا، وإنما أقصد أن قصائدك لم تقنعني لأنها مليئة بالكذب: تصف نفسك بالفارس الذي يقطع من أجلي آلاف الرؤوس بضربة واحدة من سيفه. ولو كنتَ قاتلاً لأحد لما أحببتك أصلاً، ثم إن هذا غير صحيح يا سليم.. فأنت لم تر سيفاً غير سيف جدك المعلق في واجهة صالة استقبال الضيوف وربما لم تلمسه، ثم إنك لم تركب حصاناً في حياتك. وتصف عيني بالواسعتين كبحيرتين فيما ترى أنهما صغيرتان مثل فتقين أحدثتهما الفئران في ثوب، حتى أمي نفسها تشبهني بالصينيين قائلة: هاتي الصينية يا صينية. وأختي سلوى تصفهما بشيء آخر حين تغضب مني. قلت: ماذا؟.. قالت: لا.. لا، إني أخجل.

توسلت بها أن تقول: عليكِ أن لا تخجلي مني بعد الآن. قالت حسناً.. سلوى تقول أن عيني يشبهان.. يشبهان فُروج الأرانب.

Twitter: @ketab_n

قالت ذلك وهي تبتسم موشكة على الضحك، فلاحظت بأن عينيها الصغيرتين تغوران تماماً لتصبحا خطين صغيرين يجعلانها أكثر إغراءً كمن تنادي غامزة. وواصلَت: ثم تقول إن مشيتي هي التي علمت أغصان الأشجار كيف تتمايل مع الريح وتتحدث عن قلادة لي من النجوم والقمر وإنني سيدة الكون، وما أنا إلا فتاة لا تعرف ماذا يدور خارج قريتها.. وغير ذلك.. أقصد كل هذا كذب يا سليم. فلا داعي له.. ورسائلك تكفيني بواقعيتها وصدقها كي توصل مشاعرك إلي.

كان شعوري بالخيبة كبيراً بحجم هذه المفاجأة، وأنا أستعرض انهيار جهودي وسهر الليالي على ضوء شمعة معتصراً نفسي ومتقلباً على قفاي وبطني في محاولاتي لتسطير قصائدي التي لا يتجاوز أطولها عشرة أبيات، لكنني كنت أشعر بصدق عالية ووجدتها على حق. لم أعلق وغيّرت الحديث إلى تفاصيل حياتية أخرى محاذراً، هذه المرة، من الانزلاق إلى التهويل والحلم.. على الرغم من شعوري بأن لقاءنا ذاك كان أشبه بالحلم وحبي المتزايد لها حلم لم يتوقف عن الاتساع.

اتفقنا على اللقاء اليومي هنا في هذا المكان الذي سميناه عشنا، ونهضتُ ماداً لها يدي أعينها على النهوض. كانت كفها لدنة مثل وسادة جديدة، وشعرت بأن للملمس طعماً أيضاً.. لأن كفها تركت في نفسي أثراً عذباً لم تتركه كل الأيدي التي صافحتها طوال حياتي. سرت معها حتى وصلت حصانها، أعنتها في فك الحبل ثم رافقتها حتى خرجت من الدغل باتجاه الشاطئ. امتطت الحصان بقفزة خاطفة وانطلقت ملوحة لي بكفها. بقيت في مكاني أراقب ابتعادها، وشعرها طائراً خلفها مثل جناح طائر سعيد، حتى اختفت، فعدت إلى بقعة جلوسنا، استلقيت على ظهري مستعيداً للتفاصيل، أنفاسها،

Twitter: @ketab_n

صـوتها، ملمس كفها، إغماضـة عينيها وما قالت. كان الرمل يسرب برودتـه اللذيذة إلى ظهـري وأنا أحدق بزوج فواخت في الأغصـان المتعانقة وخلفيتها السماء.

حـين نزلت الشـمس القريبة خلف الجبل القريب، سـادت العتمة المكان، فنهضـت ورتبت عشـنا، سـويت الرمل، قطعت الأغصـان الممتدة إليه، رصـفت الحجـارة التي وجدتها على حافتـه الدائرية ثم عدت إلى البيت. لم أخبر إسـتبرق بشيء. كنت ساهماً بقول عالية عن كذب قصـائدي. وبقيت في تلك الليلة أتحين الفرصـة لطرح السؤال على جدي، ترددت كثيراً.. فكرت طويلاً في إيجاد الكلمات المناسبة لطرح السـؤال خشـية غضـبه ونهره لي، وحين وجدته لم يعرج على الشـعر في حديثـه قلت: هل تحفظ كل أشـعار عنترة يـا جدي؟ قال: أحفظ الكثير له ولغيره ولكن لا أدري إن كانت القصائد التي أحفظها له هي كل أشعاره. فقلت وأنا أعرف بأن جدي يمقت الكذب ويعتبره «أشـد بلاء حتى مـن القتل لأنه الخطـوة الأولى إلى كل المعاصـي»،: ولكن ألا ترى بأن قصـائد هؤلاء الفرسـان فيها الكثير من المبالغات.. بل وتصل إلى حد الكذب أحياناً؟.

توقعـت أن يكون رد فعله عنيفاً أو أن يصـمت مفكراً لبرهة، كما يحدث معه حين يُسـأل عن قضـايا تتعلق بالشَـرع، لكنه أجاب فوراً وبجملة واحدة: «إن أعذَب الشعر أكذبه». ثم عاد لمواصلة قصته التي كان يسردهـا تلـك الليلة. فيما بقيت أنا تحت وطـأة مفاجأة أخرى لا تقل عن المفاجأة التي سـببها لي قول عالية. لم أسـتطع استيعاب عبارة جدي جيـداً في حينها، لكنني كنت قد حسـمت الأمر بعدم معاودة كتابة الشـعر مرة أخرى كخلاص من التناقض الذي أوقعاني فيه.. ثم

Twitter: @ketab_n

لماذا أكتبه إذا كانت عالية لا تنتظره مني؟. قلّت قراءتي للشعر بعد ذلك، وما كنتُ أقرأه منه بين حين وآخر، رحت أراقبه وفق ما قالته عالية ووفق ما قاله جدي. و لم أعد لكتابته إلا قبل أربعة أعوام هنا في لحظات اشتداد الحنين الذابح إلى عالية. كتبت مقاطع قليلة ومتفرقة، لم أنشر منها شيئاً ولا أفكر بذلك.. فقد تبدد حلم طفولتي في أن أصبح شاعراً ذا شأن، أو حتى كاتباً محترفاً، وما القصص القصيرة الثلاث التي نشرتها في صحف المعارضة العراقية في لندن إلا ذكريات من أيامي في الجيش سطرتها لنفسي كي أوطرها أو كي أتخلص منها أو لإشغال ساعات الفراغ هنا بمحاولات في التعرف على الذات والاقتراب منها أكثر.

رحنا نلتقي يومياً في عشنا، الذي صار أوسع قليلاً، أكثر نظافة وترتيباً وأكثر حميمية. غالباً ما يكون اللقاء في ساعة القيلولة حين ينام أهلنا. رحنا نتعرف على بعضنا أكثر، نحب بعضنا أكثر. جلبتُ لها دفتري الذي ألصق فيه صور الفنانين والفنانات وصوراً لمشاهد تشبه الحلم الذي أحدث عالية في أخذها إليه، صور من الإعلانات التي أقصها من المجلات الألمانية التي يجلبها أبي، بيت خشبي أبيض تحيطه الأشجار وفي حديقته ورود ملونة على حافة بحيرة شديدة الزرقة، وخلفه جبل على قممه قبعات بيضاء من الثلج تلامس غويمات بيضاء هي الأخرى، لكن عالية كانت أقل انفعالاً مني بالأحلام..

تعلمتُ منها الرضا والقناعة والواقعية واستعذاب التعامل مع الموجودات البسيطة التي تحيطنا.. تعلمت منها رباطة الجأش أيضاً والثقة باللحظات الراهنة. وفي دفتري صور أخرى لنساء بعيون خضراء وشعر أشقر أخترع لهن أسماءً وأقول بأنهن ممثلات عالميات،

Twitter: @ketab_n

متظاهـراً بسـعة معرفتي بفناني العـالم على الرغم من أننـي لم أكن قد دخلت صـالة سـينما في حياتي آنذاك. ولأننا نسـارع إلى اللقاء وزاد تفكيرنا ببعضنا. كنا ننهض عن موائد أهلنا قبل أن نشبع، فأجلب معي حفنة من التمر، ألفها في ورقة وأدسـها في جيبي، وكانت عالية مثلي ومثـل جدي وغالبيـة آل مطلق، تحب التمر كثـيراً. حين نفِدت حفنة التمـر الأولى بقينا نرفع أكفنا الدبقة مؤخرين ذهابنا إلى الشـاطئ. ولا أدري كيـف تناولت كفها ورحت أمص أصـابعها، فأعجبتها الفكرة وتناولت بدورها أصـابعي تمصها وتضحك في البداية.. ثم استسلمنا لخدر لذيذ وارتعاشات غامضة قادت شفاهنا إلى بعضها دون أن تفلت يدها أصابعي أو يدي أصابعها.

تلـك أول وأعذب قُبلة في حياتي، شـفتا عالية رفيعتان. ومثل بقية جسدها الذي رحت أكتشـف تفاصيله لاحقاً؛ لدناً ومتيناً في الوقت نفسـه، ليس مائعاً كالزبد لكنه كالجبن في طراوته. لشفتيها طعم التمر والإنسـان، هذا ما اكتشفته حينها: للإنسـان طعمه الخاص أيضاً كما لـكل فاكهة أو كائن. صـمتنا طويلاً بعد القبلة الأولى نحدق ببعضـنا باضـطراب ومخافة، كنا نتحـاور في النظرات و لم ننطق بكلمة واحدة بقية اللقاء، نهضـنا إلى الشـاطئ، غسـلنا أيدينا ووجوهنا، ثم ذهبت وبقيـت أنا بعدها وحيـداً كالعادة. لم أعد إلى العشـ وإنما بقيت على الشاطئ، أُلقي الحصى بعيداً وسط النهر، ثم جلست على صخرة مثل أبـي ودليـت قدمي في الماء سـاهماً حتى المغيب مسـتعيداً طعم القبلة وخائفاً من الله.

في تلك الليلة نمت متأخراً بعد تقلب طويل في الفراش واستيقظت قبل الشمس متعرقاً مرتعباً إثر حلم رأيت فيه نفسي في الجحيم وزبانية جهنم،

Twitter: @ketab_n

الذين وصف جدي عملقتهم وقسوتهم، يسخنون الحديد ويكوون به شفتي. أزيز مفزع. وتصعد مع دخانهما رائحة الشواء فيما كنت أشعر بوجود الله مشرفاً على عقابي، يراقب تنفيذه من مكان مرتفع لا أراه. وصوت جدي يدوي غاضباً: إنه يستحق، لقد حذرتهم جميعاً.. اللهم إني بلغت. اللهم فاشهد.

دفعت الدثار ونظرت حولي، كان الدخان يرتفع مع رائحة خبز أمي الصباحي من التنور في طرف الحوش. نهضت قفزاً وركضت أروي ظمئي من الجرة التي تتركها قرب الباب، شربت كثيراً من الماء و لم أرتوِ. كنت أشعر بجفاف شفتي ووخز فيهما.

في لقاء اليوم التالي، ترددت كثيراً في تقبيل عالية لأن جهنم كانت في رأسي مصحوبة بصوت جدي ونظرات الله. لكنني لم أستطع مقاومة إغراء اللذة فقررت تجاهلهما، تأجيل التفكير فيهما، وأن خطيئتي هذه ليست كبيرة كالزنا، كنت أقول لنفسي مبرراً: عذوبة تقبيل عالية في هذا العالم تستحق أن أحتمل من أجلها عذاب كوي شفتي في العالم الآخر.

صارت حصة الكلام بيننا أقل لأننا رحنا نمضي أكثر الوقت بالتقبيل. أحبها.. كأنني «في جنة عالية لا تُسمع فيها لاغية». وممتد أكفنا إلى الظهور، الأرداف، الرقبة، الشَعر ورمانات الأكتاف.. لكن عالية أبعدتهما حين نزلا إلى الصدر أول مرة نحو إغراء بروز حلمتيها الرافعتين لقماش ثوبها الشفيف مثل حبتي حمص. قالت: حرام. فقلت لها: سنتزوج.. نتزوج؟.. تهلل وجهها واحتضنتني بقوة ثم تركت لكفي حرية التسلل من صدر فستانها.. وممددنا على الرمل. صارت لاحقاً تمنحني نفسها كلياً.. وأحبها كلياً كأنني «في جنة عالية قطوفها دانية».

تحتفظ بأكثر التمرات طراوة إلى آخر وجبتنا التي راحت تُثرى بالخبز

Twitter: @ketab_n

والخيار والتين. تفتح التمرة بأسنانها، تستخرج منها النواة وتلقيها إلى الدغل، تمرر التمرة الخاوية على أصابعها مثل خاتم، ثم تمنحني الأصابع لأمصها. أراها تغمض عينيها الصغيرتين اللتين تتحولان إلى خطين ترتفع منهما شعيرات الرمشين.. يحدث هذا لعينيها تماماً كما يحدث لهما حين تضحك أو تتبسم بقوة. أحياناً تترك في إصبعها التمرة الخاتم لآكلها قبل مص الإصبع. أحياناً تأكلها هي حين لا تستقر التمرة على إصبع منتصب. بعد الأصابع تطلي شفتيها بالتمرة التالية.. كأنها تتمكيج، تطلي شفتي وتدسها في فمي ثم نغرق بامتصاص طويل لشفاه بعضنا البعض.

لعالية زغب خفيف على شاربها لا يراه إلا اثنان: محب لها أو كاره. المحب، أنا، يرى فيه مكملاً لجمالها ومؤخراً للمحافظة على عسل التمر مما يطيل في عمر القُبل. أما الكاره فيتخذ منه عيباً يهوّله لأنه لا يرى في جسد عالية من عيب آخر. تماماً كما يحدث الأمر مع صغر عينيها اللتين صرت أحب صغرهما وغورهما في وجهها حين تضحك أو تستسلم لعذوبة تلامسنا.

سألتني إستبرق، بعد أيام حين راحت تتماثل للشفاء، عن رسائلي، فأخبرتها بمسألة العش الذي نلتقي فيه، دون أن أدلها على مكانه، والذي نترك فيه رسائلنا لبعضنا فيه حين يتعذر اللقاء. ندسها في فَطر حددناه في أسفل جذع الشجرة المنتصبة على حافة العش الذي تستند عليه عالية أحياناً، أو تحت حصاة بيضاء اتفقنا عليها. قلت: يا إستبرق رجاءً لا تخبري أحداً بذلك أبداً. قالت: اطمئن. وقد فغرت فاها دهشة، وربما أقامت لها مع صراط عشهما الخاص أيضاً، لأنها صارت تختفي من البيت كلما وجدت فرصة لذلك.

Twitter: @ketab_n

لاحقاً.. أخذت عالية تفتح أزرار صدر ثوبها أو تخلعه ثم تطلي نهديها بعصير التمر وتستلقي على قفاها على الرمل، مغمضة عينيها وتاركة لي لعقهما، مصهما، حبهما.. ولها التأوهات الراعشة. ذلك ما جعلني أبدأ لاحقاً بالنظر إلى المرأة من صدرها، ولعالية نهدان مثاليان، ليسا كبيرين ولا صغيرين، حين أفتح كفي على أحدهما لا يفيض منه عنها إلا القليل وتنتصب حلمتها تحت لساني. عالية مثلي ومثل جدي في عشقها للتمر، لكنها أشد مني محبة للنهر.. شدة حبها له هي التي جعلتني أحبه أولاً. لكنني رحت أغار لاحقاً من كثرة حديثها عنه وهو أمامنا، تصوره أجمل مما أراه، ثم صارت علاقتي به مزيجاً من العداء والمرافقة بعد أن غرقت فيه عالية أواخر صيفنا ذاك. طلبت منها، ذات مرة، ألا تبتعد في الماء عند السباحة. وأجابتني: لا تخف إنه صديقي.. وكانت تقول: إن الحياة هدية جميلة من الله يا سليم، ليس لنا أن نعترض على حجمها أو طولها، وإنما نتقبلها بشكر ومتعة. لذا كلما تذكرت عالية أشكر الله وأعاتب الحياة على أخذها مني أجمل هدية منحتني إياها.. على أخذها مني عالية. أعاتب النهر وأرميه بالحجر وأبكي ثم أرمي بنفسي في أحضانه متمنياً أن يأخذني إليها.

أخذها مني مساء العيد، حين كنا نخرج جميعاً إلى شاطئ النهر. تتجمع العائلات على الحافة التي يلتقي فيها الرمل بالحصى، تفرش ملاءاتها على الأرض وتصف الأمهات أواني الأطعمة والحلويات المصنوعة ليلة الأمس. الأطفال يلعبون متراكضين حول دوائر الكبار والجبل يردد صدى صرخاتهم. الآباء يقيمون المواقد ويشوون اللحم فتختلط دموعهم التي يسببها الدخان بالتي يسببها الضحك. نسبح في النهر كلاً في جهة مخصصة وغير بعيدة، الرجال هنا والنساء ـ دون أن يخلعن فساتينهن ـ هناك، وللأطفال فقط حرية التنقل بين الجهتين

Twitter: @ketab_n

متوسلين بالكبار أن يعلموهم السباحة. وجدي يردد آمراً: علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل.

كان يجلس هناك منفرداً على كرسيه الوحيد في المنتصف، على تلة واطئة يراقب الجميع. لقد جلب له أبي هذا الكرسي من كركوك حين ازداد مرض السكر امتصاصاً لبدنه حتى نتأت عظامه وصار الجلوس المباشر على السجادات يؤذي ظهره وعظام حوضه، لذا يصطحب معه وسادة هي مربع إسفنجي يضعه تحته أينما جلس، بما في ذلك على الكرسي الوحيد في القرية وكان مثار إعجابنا جميعاً لأنه يُطوى ونشعر بخفته حين يحمله أحدنا سائراً خلف جدي إلى المكان الذي يريد. يقول أبي إن الألمان لديهم الكثير من الكراسي ومثل هذا ما يستعملونه للاسترخاء عراة تحت الشمس.

كل الأمهات يجلبن نماذج من أفضل أطعمتهن لجدي، لكنه لا يأكل إلا القليل ويوزع المتبقي على الأطفال المقتربين إليه. كنا نحن الفتيان نسترق النظرات إلى جهة النساء متصيدين مشاهد التصاق الثياب بالأجساد كي نجترها لاحقاً في اهتزازاتنا السرية. بعضنا كان يبالغ في ابتعاده في النهر أو يتفنن بقفزاته كي يلفت إليه نظر الفتيات.

فجأة تعالى الصراخ من جهة النساء: عالية.. أين عالية؟.. عالية غطست ولم تطلع.. عالية تأخرت بالطلوع. تراكضنا جميعاً إلى هناك. اختلطنا. خرجت جميع النساء من الماء واصطففن على الشاطئ مصفرات الوجوه مرتعبات وأصابعهن تشير إلى موضع غطسة عالية الأخيرة. كانت أمها أشدهن صراخاً، تصيح وتندب على صدرها، وكان قلبي أشد قلوب الحاضرين انخلاعاً.

ألقينا، نحن الذكور جميعاً، بأنفسنا في المكان الذي خرجن منه

Twitter: @ketab_n

وحيث تشير الأصابع. كنت أغطس أعمق ما أستطيع. أفتح عيني تحت الماء غير مكترث بدخول خيوط الطحالب فيهما. لا أرى سوى الحصى في القاع بقعاً واسعة، ولا أخرج حتى أوشك على الاختناق. فأرفس القاع بقدمي وأنطلق إلى الأعلى دافعاً رأسي إلى السطح، أعب الهواء لاهثاً على عجل خاطفاً نظري إلى من حولي عل أحدهم وجدها، ثم أغطس قبل أن تشبع رئتاي من الهواء.. كانت دقائق متوترة، مريرة، كابوساً من دقائق، من أيام، من أعوام.. كابوساً طوله العمر بأكمله.

التقطني أبي حين انتبه إلى تخبطي قربه وأنا أوشك على الاختناق. أتقيأ ما كرعته من ماء، رفعني بذراعيه القويتين وسحبني إلى الشاطئ ناهراً. كانت سيقان النساء الواقفات تطوقني، وأمي تقعي جواري تمسح الماء عن وجهي ومخاطي بذيل ثوبها. فيما أُفلت وجهي من كفيها كي لا أنقطع عن مراقبة الباحثين، وصدري يعلو ويهبط بفعل تسارع التنفس وطبول القلب. أمي تشد على ذراعي كي تمنعني من النهوض. اقتربت إستبرق من خلفي مشفقة تحيط ظهري بمنشفة وهي تحتضنني، كفاها تمسحان كتفي بمداعبات تهدئة تفيض حناناً وأشعر بارتجافها.. ثم انفجارها بالبكاء وسقوطها علي محتضنة حين شاهدنا جميعاً أحدهم يرفع جثة عالية إلى السطح. كفاي تحاصران وجهي دون أن أحول عيني عنها، ولا أقوى على النهوض.

يرجع العويل من جهة الجبل أشد علواً مما ذهب. تحلّق السابحون حول حاملها، سحب أحدهم ثوب عالية مغطياً ساقيها فيما يتقدم بها حاملها نحونا. كانت نائمة على ذراعيه والماء يقطر منها، شعرها الطويل يتدلى مثل ذراعيها. وكان آخره هو آخر من ودع النهر خارجاً

Twitter: @ketab_n

منه ومتصلاً بـه عبر خيط المـاء الذي جعل من شـعرها شـبيهاً بذيل حصانها حين تغسله.. وليس شبيهاً بجناح طائر سعيد حين كان يطير خلف رأسها ممتطية حصانها المنطلق.

اقتربـوا.. عالية نائمة على ذراعي حاملها بوداعة وتمطر على النهر مـن أنحائها. كل شـيء فيها يشـير إلى الأسـفل، إلى النهـر، قدماها، ذراعاها، أصـابعها، شـعرها، ثوبها.. باستثناء صـدرها؛ مرتفعٌ كما عرفتـه. قبتان.. والثوب المبلل يكشـف التفاصـيل. كان ذلك آخر ما رأيتـه منها قبل أن تغيب خلف الأجسـاد المحيطة بها وهي تحملها إلى حيـث كان يجلس جدي. مددوهـا هناك أمامه على الحصـى الناعم منتظريـن منه ما ينصـحهم بفعلـه. الكل انسـحب إلى هناك. صـفا سـطح النهر وأنا لا أقوى على النهوض. سقط رأسي بين ركبتي محاطاً بذراعي وأجهشت بالبكاء. إستبرق تحضنني من الخلف ويهزنا بكاؤنا معـاً فيما ضـمتني أمي إلى صـدرها، تقبل رأسـي وتقـول: أعرف يا حبيبي.. أعرف كل شـيء.. لم تقل أكثر من هذا حول حبي لعالية بعد ذلك أبـداً، لكنها كانت ترقبني بعينين حانيتين وقلب كسـير. وازداد في الأيام اللاحقة قرب إسـتبرق مني، مواسـاتها، شفقتها ومشاركتها لبكائي وحيدين في الغرفة الموصدة أو على الشاطئ.

كانـت ترافقني أحياناً في زياراتي السريـة إلى قبر عالية الوحيد في سـفح الجبل قبـل أن يتحول فيما بعـد إلى مقبرة واسـعة لموتى قريتنا. تبحث معي عن الحصـى الأبيض لصـفه على القبر، تنظف الشاهدتين الصـخرتين وتعترف: أنا الذي أخبرت أمي بعلاقتكما، فرِحَت كثيراً وقالـت أن أم عالية قـد فرِحَت أيضـاً واتفقتا علـى أن يفاتحا الأبوين بزواجكما ليكون في العيد القادم.

Twitter: @ketab_n

لم أجد أية رسالة من عالية في شق الجذع الذي كانت تسند عليه ظهرها في عشنا مانحة إياي صدرها المطلي بالتمر. لم أجد رسالة تحت الحصاة البيضاء، و لم أعد إلى العش بعدها أبداً حين وجدت في آخر زيارة له أن أحدهم قد تغوط في منتصفه حيث لم يعد عشنا سرياً مادام أحدهم قد وجد فيه مكاناً مناسباً للتغوط.

مشهد عالية النائمة وهي تمطر على النهر كان آخر ما رأيت. وصدرها الحي وسط موتها أكثر مشاهدها حضوراً، اصطحبته معي دائماً. وكان أنيسي مع التمر في لحظات عصف شوقي إليها. مرتين فقط استحضرته لممارسة اهتزازاتي السرية؛ مرة حين كنت في الجيش على مثلث الحدود العراقية التركية السورية عند ضفة نهر الخابور، وبعد خفارة حراسة ليلية طويلة كانت عالية أنيستي الوحيدة فيها، مشتاق إليها إلى ملامستها. صورتها تشيع في شراييني الدفء وارتعاش العذوبة.

انحدرتُ إلى النهر، بعد أن سلّمتُ دور الحراسة للجندي اللاحق. كان القمر ساطعاً يجلل الكائنات والفضاء بضوء فضي. تركت بندقيتي على الشاطئ، خلعت ملابسي فوقها وجزمتي جوارها ثم تسللت إلى الماء بهدوء، مددت يدي تحت الماء إلى المتوتر مني. أغمضت عيني على ذكرى عالية ومشهد نهديها القبتين تحت آخر فساتينها المبللة، ورحت أهتز وأهتز.. أهتز حتى ذروة الشوق واللذة. شعرت بعدها بالفراغ، بالخجل وبالذنب على ما فعلته بها ميتة.. وبكيت.

قررت عدم تكرار ما فعلت. لكنني كررته قبل أربعة أعوام حين نامت بيلار في فراشي بعد حفلة التقبيل وتلمس ثدييها. فبعد أن شعرت بأنها قد غفت وعطرها يملأ المكان، فيما أنا ممددٌ على الكنبة

Twitter: @ketab_n

في الصالة أتحسس المتوتر تحت بجامتي وأتذكر عالية.. حتى بقي على موعد خروجي إلى عملي في توزيع الصحف نصف ساعة، نهضت إلى الحمّام، أغلقت بابه خلفي بإحكام، وبحذر من إحداث أية ضجة. ملأت الحوض بالماء وتمددت فيه بهدوء، مددت يدي تحت الماء إلى المتوتر مني. أغمضت عيني على ذكرى عالية ومشهد نهديها القبتين تحت آخر فساتينها المبللة، ورحت أهتز وأهتز.. أهتز حتى ذروة الشوق واللذة. شعرت بعدها بالفراغ، وبالخجل، وبالذنب على ما فعلته بها ميتة.. وبكيت. ثم سارعت في الاغتسال. ارتديت ملابس العمل وتناولت تمرتين وجرعة حليب بارد ثم خرجت تاركاً بيلار في فراشي، ومشعلاً سيجارتي حال خروجي من باب العمارة.

حين وصلت مقر الشركة، وجدت أنطونيو جالساً في السيارة بانتظاري ويدخن، بعد أن أكمل رزم وتحميل الصحف التي علينا توزيعها. جلست قربه خلف المقود وأدرت المحرك ثم سقتها منطلقين كالعادة. صفعني على ساقي اليمنى قائلاً بقصد: عرفتُ بأنك ستصل متأخراً.. ها كيف كانت ليلتك؟. قلت له: تمام.. لكنني تركتها نائمة في شقتي. قال: لا تقلق. بيلار فتاة جيدة أعرفها منذ زمن طويل.. على فكرة إنها تنجذب إلى الأجانب أكثر. آخر أصحابها كان إيطالياً.

جمعت ملابسي من حبل الغسيل، وأحكمتُ إغلاق نافذة المطبخ، متذكراً ما قالته بيلار، كي لا يدخل الحمّام. حاسماً قرار ذهابي هذه الليلة إلى مرقص أبي. قالت روسا هذا الصباح، بكلمات عربية لفظتها بركاكة، بأن السهرة هذه الليلة ستكون جميلة.. وليس هذا هو الذي يدفعني للذهاب، إنما أبي.. علي أن أجد فرصة للحديث معه، أو نتفق على موعد أكيد.. أبي الجديد الذي طلع في حياتي هنا.. هكذا فجأة

Twitter: @ketab_n

كرأس ينبثق من الماء بعد غطس طويل... تُرى هل مازال أبي يتذكر مساء العيد الذي غرقت فيه عالية؟.. هل مازال يتذكرها كما أتذكرها أنا بعد كل هذه الأعوام؟.

Twitter: @ketab_n

-٧-

وصلتُ إلى المرقص في الساعة الثانية عشر إلا ربع ليلاً في نية لاستباق ازدحامه، كما هو الأمر في بقية المراقص، حيث يبدأ الصخب الراقص بعد الواحدة ويمتد حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. مرقص القشامر في شارع بينيراس Veneras على الرصيف الأيسر حين تكون ـ مِثلي ـ قادماً من تقاطع سانتو دومينغو، أسفل عمارة قديمة، ربما كان مخزناً لها في البدء وأيام الحرب الأهلية الإسبانية. ولكن الزمن فتح له باباً على الشارع الضيق ليتم استخدامه كمحل لبيع المشروبات أولاً ثم مرقص يكتريه الآن أبي وصاحبته روسا، بعد أن أعادا ترتيبه ليكون كذلك. يقابله الآن على الرصيف الأيمن محل لعائلة صينية يبيع المواد الغذائية والكرزات والمشروبات البسيطة والسجائر حتى ساعة متأخرة من الليل لأنها تعيش في القسم الخلفي منه.

البوابة الخارجية للمرقص سوداء من خشب، وجدتُ أمامها فتاة تبكي وفتاها يسترضيها، يقبلها فتدفعه بليونة وتمسح عينيها. كانا يقفان تماماً أمام العبارات المكتوبة باليد. حين مددت يدي إلى مقبض الباب أزاحا نفسيهما عنه قليلاً. تلي البوابة الخشبية بوابة أخرى من شبك حديدي. كانت مفتوحة ومربوطة بسلسلة على الحائط، ثم درج نازل على امتداد مترين ونصف تقريباً، ينعطف في منتصفه وكله

Twitter: @ketab_n

مغطى بسجادة حمراء معتمة.. بل تكاد تصبح سوداء بفعل كثرة مرور الأحذية عليها وتنفسها للدخان الذي كان، مع الموسيقى الصاخبة، هو أول من استقبلني حال فتحي لبوابة الخشب السوداء. ثم لغط المتحدثين وضحكات تتعالى، عرفت منها ضحكة روسا ثم ضحكة أبي بعد أن صرخ بأحدهم بالإسبانية: كابرون..(يا تيس). حين نزلت آخر درجة وجدتهم يقفون قرب البار، وبالفعل لم يكن عددهم يزيد عن خمسة عشر شخصاً، كلهم يحيطون بأبي، كؤوسهم في أيديهم ويضحكون.

فاطمة في مكانها الدائم خلف البار، قرب صندوق الحساب. وما إن رآني أبي حتى ناداني باحتفالية وقادني إلى تجمعهم، يُعرفني على الواقفين بحركات مسرحية: سليم.. هذا سليم. ثم تلا أسماءهم وهو يشير إلى كل واحد منهم واضعاً سبابته في صدره، بما في ذلك الفتيات، حيث يضع إصبعه بين نهودهن أو عليهن ساحباً إياه بسرعة بحركات كوميدية ويضحكون. فيهم ألمان وهولنديون ونمساويون وأسبان، فقد قدم آخرهم، وكان بديناً قصير القامة: خسوس.. كابرون. وانفجر الجميع بالضحك. لم يقل لهم إنني ابنه وإنما: سليم. فقط. ثم لف ذراعه على كتفي حين وقفت جواره مبيناً لهم حميمية علاقتنا. وسألتني روسا: ماذا تشرب؟ فقلت لها: لا شكراً.. ليس الآن.. سأطلب بنفسي.. بعد قليل.

كان أبي يتحدث مع البعض بالألمانية ومع آخرين بالإنكليزية ومع الأسبان بكلمات معدودة أكثرها شتائم لكنه يستعين بفاطمة للترجمة حين يتطلب الأمر ذلك، أو بروسا التي يتحدث معها بالثلاث: الألمانية والإنكليزية وبشيءٍ من العربية. يحمل في إحدى كفيه كأساً وفي

Twitter: @ketab_n

الأخرى سيجارة، ومع ذلك لا يكف في أثناء التكلم عن استخدام يديه والتلويح بهما. وما أكثر ما كان يلف ذراعه التي تنتهي بسيجارة على رقاب الآخرين. أما إذا رمى السيجارة فأصابعه تقبض أينما وقعت قارصة لحم المحيطين المنتشين بحضوره الصاخب.

تواصل وصول زبائن جدد نازلين عبر المدخل الأسود بسجادته الحمراء كلسان ممدود يشبه فماً مفتوحاً يتقيأ أشخاصاً كلهم يأتون إلى دائرة المتحلقين حول أبي ويتمازحون معه فتكبر دائرتهم وتحتشد، ولأن أغلبهم يعرف أغلبهم وجدت نفسي شيئاً فشيئاً على هامش الدائرة، وحيداً لا أعرف أحداً منهم ولا أجد مدخلاً أو مقدرة في نفسي على إيجاده للتداخل مع مزحاتهم المتآلفة بصخب ضاحك أو ضحك صاخب، فانسحبت بهدوء نحو دكة البار وجلست على مقعد مرتفع بين حنفية البيرة وصندوق الحساب، قبالة مكان وقوف فاطمة الدائم. حييتها فابتسمت بعذوبة فيما كفاها لا يكفان عن تنشيف الكؤوس المغسولة بمنشفة مربوطة في طرف صدرية العمل البيضاء التي تعلقها في رقبتها كصدريات الطبخ.

قالت: ماذا تريد بيرة ألمانية أم إسبانية.

قلت: لا هذه ولا تلك فأنا لا أشرب البيرة ولا أي مشروب كحولي.. أعطيني كوكا كولا لايت.

قالت مبدية دهشة لا أعرف مدى جديتها: صحيح لا تشرب!.. ممتاز والله.

ـ وأنتِ؟.

ـ أنا أيضاً لا أشرب الكحوليات.. وإذا ما اضطررت للمجاملة أحياناً فأشرب بيرة خالية من الكحول.

Twitter: @ketab_n

ـ كم سنة لكِ هنا في إسبانيا؟

ـ أربع سنوات تقريباً.

ـ ومنذ متى تعملين هنا؟.

ـ منذ ستة أشهر.. منذ افتتاحه.

ـ وكيف؟.. أعني كيف وجدتِ هذا العمل؟.

ضحكَت مميلة برأسها إلى الخلف ومستبدلة الكأس الناشف بآخر مبلل كي تنشفه.

ـ إنها الصدفة.. أو الحظ.. لا أدري.. فقد كنت مارة من هنا ذات صباح ودخلت إلى المحل الصيني، الذي أمامنا، تعرفه؟.. أردت أن أشتري بعض الدفاتر والأقلام وأشياء أخرى.. يعني قرطاسية لأختي، هي صغيرة عمرها أربعة عشر عاماً، وأريدها أن تكمل دراستها ولا تتركها مثلي.

مع ازدياد الداخلين تزداد الكؤوس الفارغة التي تجلبها العاملتان الأخريان من أنحاء المرقص إلى فاطمة، كما تحملان عائدات بعض الطلبات لآخرين. وكانت فاطمة تتوقف عن حديثها معي لتحادثهما، تأخذ منهما العائد الفارغ وتملأ لهما المطلوب، فيما أنتهز أنا الوقفة الحوارية لارتشاف شيءٍ من الكوكا كولا وللنظر إليها بتمعن أو لاستطلاع المحيط، حيث اختفى أبي بين الجموع، لا يُرى منه إلا رأسه بضفيرته الملونة، ولا يُسمع منه إلا ضحكته المجلجلة عالياً والمسوّرة بصدى ضحك الآخرين.. وتتخلل ذلك شتائمه بكل اللغات.

ـ المهم.. وجدتُ هناك السيد نوحاً، صاحبكَ، كان يبحث عن أشياء تتعلق بالترميمات الأخيرة: براغي ومسامير وزوايا رفوف

Twitter: @ketab_n

وأشـياء من هذا النوع.. فاصـطدم بي داخل المحـل وقال على الفور بالعربية (عفواً).. فأجبته أنا بالعربية: لا شـيء.. وهكذا قال لي: أنت عربية؟!.. وراح يسـألني عن الأسماء الإسـبانية للأشياء التي يريدها، وأساعده. فقال لي بعد أن وقفت معه كمترجمة حتى انتهى من الدفع: هـل تريدين العمـل؟.. قلت: نعم ولكن.ماذا؟. فقـادني إلى هنا حيث كان عمال الديكور على وشك الانتهاء.. وهكذا رحنا نتحدث بالأمر حتى اتفقنا.. لكن المفاجأة التي قد لا تصدقها، تكمن في الشرط الذي فرضه عليّ قبل الاتفاق.. عفواً لحظة..

اقـترب منهـا أحدهم، ربمـا هولندي، يطلـب منها شرابـاً ممزوجاً (كوكتيل) وبما أنه لم يكن يعرف التعبير بالإسـبانية سـألته فيما إذا كان يتحدث الفرنسـية فقال نعم وراحا يتحدثان بالفرنسية حتى أنجزت له ما طلب وابتعد شاكراً.

فعادت للاقتراب مني وعلى وجهها ابتسامة عذبة تشي بأنها تتعلق بما سترويه.

ـ لقد اشترط عليّ أن أحفظ «سورة البقرة» كاملة قبل أن يوقع العقد لي.

ضـحكة أبـي تجلجل، والدهشـة تهـزني لذا ربمـا سـألتها: أأنتِ متأكدة؟!.

ـ أقسـم بالله العظيم.. وأهداني نسـخة مـن القرآن.. أنا أيضـاً قد أصابتني الدهشة مثلك.

ـ ها.. وبعد؟.

ـ أخذتُ القرآن وقلت له أمهلني أسبوعاً..

Twitter: @ketab_n

الزحـام يتزايـد في المرقص وأربعة أشـخاص دنوا يسـألون فاطمة شراباً فيما إحدى العاملات تطلب لآخرين، فجاءت روسـا وسـألت فاطمة فيما إذا كانت بحاجة إلى أن تساعدها إحداهن.. قالت: لا. في البدايـة، ثم قالت: نعم. بعد أن جاءت زبونة أخرى وفتاها. أظن بأنها التـي كانت باكية في البـاب عند دخولي. اسـتدارت إحدى الفتيات العاملات من أقصـى دكة البار لتقف مع فاطمة اسـتجابة لأمر روسـا التـي دنت مني وربتت على كتفي بلطف وقالت بتقليدية مديرة متجر محترفة: ها.. كلشي تمام؟.

ـ نعم، شكراً.

ـ انظر إليه.. هو الآن في أوج احتفاليته.

ـ نعـم.. نعـم.. أراه.. أو بالأحـرى لا أرى إلا ضـفيرته وهديـر ضحكته.

ضـحكت هي الأخرى وابتعدت لشـأن آخر.. أدركتُ من ذلك أن دورهـا هو الإشراف العام، ودور أبي هـو مرافقة الزبائن، وفاطمة صـندوق الحسـاب وتحضـير الكؤوس والطلبات تسـاعدها إحدى النادلتين إذا ما اشتد الزحام.

كانت تبتسـم لي كلما اقتربت من الصـندوق الـذي أجلس أمامه وأسند ذراعي على حافته.. وحين لم يبق إلا اثنان تولت الفتاة الأخرى أمرهمـا، فوقفـت فاطمة أمامـي دون أن تكف كفاهـا عن العمل في تدويـن فواتـير الحسـابات أو تنشـيف الكؤوس أو إعداد الصـحون الصغيرة من الزيتون والبطاطا.. فسألتها:

ـ وماذا حدث..؟.

Twitter: @ketab_n

ـ وافقت بالطبع.. لأنها فرصة كنتُ أنتظرها ومن خلالها أحصل على عقد جيد في عمل ثابت بعد أن أمضيت الأعوام السابقة بالتنقل بين تنظيف البيوت ورعاية الأطفال والشيوخ.. وفي مطاعم مهاجرين بلا عَقد..

ـ وحفظتِ سورة البقرة كاملة؟.

ـ نعم.. فقد رحت إلى البيت وحبست نفسي فيه كتلميذة تُعِد لامتحان البكالوريا، فلم أكن قبلها أحفظ من القرآن إلا سوراً قصيرة.. وكانت أختي تساعدني في الحفظ وتضحك مني في الوقت نفسه، وهي تراني مثلها أدرس من جديد.. ولكنني بقدر ما استغربت هذا الشرط.. بقدر ما منحني الثقة بالسيد نوح..

ـ ومازلتِ تحفظينها؟.

ـ نعم.. لأنه يمتحنني بها في نهاية كل شهر قبل أن يمنحني راتبي ويخصم مني يورو واحد على كل خطأ.. فيما يكرمني بخمسين يورو على راتبي إن لم أخطئ فيها.. هكذا كان الاتفاق.. يمتحنني بلا كتاب فهو يحفظ القرآن كاملاً.

لم أجد ما أقوله غير جحوظ عيني.. وثمة انتعاشة لأملي الغامض بكون أبي مازال، في جوهره، كما عرفته، فيما يزيد من حيرتي ودهشتي هذا الذي أراه منه وفيه.. هذا المغاير له تماماً.

ـ وماذا عن بقية الفتيات العاملات.. هل اشترط عليهن شيئاً؟.

ـ لا.. طبعاً.. فهن إسبانيات نصرانيات والأمر مختلف.. روسا هي التي اختارتهن.. وأنا الوحيدة التي اختارها السيد نوح، متخذاً مني مترجمة له أيضاً كما قال لروسا.. وروسا لا ترفض له طلباً.. إنها تحبه بجنون، وتقول بأنها لم تعرف رجلاً مثله في حياتها أبداً.. وفي

Twitter: @ketab_n

الحقيقة أنا كذلك لم أعرف رجلاً مثله بقوة شخصيته وكبر قلبه وذكائه وحيويته.. أنت من قريته أيضاً من العراق؟.

- نعم.. نعم.

- أنا أحب العراقيين، كلنا نحن المغاربة نحبهم.

ثم ابتعدَت تساعد الفتاة الأخرى، وبقيت أنا أشعل سيجارة إثر أخرى، مرتشفاً الكوكا كولا ومتفحصاً ما حولي. ازداد الضجيج واحتشد المرقص بشباب من شتى الجنسيات والتوجهات.. ولا أدري كيف اجتمع فيه الهيبيون والسياح والشقر والسود ومهاجرون ومثليون جنسيون والرؤوس الحليقة من العنصريين.. الكل غاطس في غيمة الدخان وتأرجح كرة الأضواء الملونة في السقف فوق دكة المسرح حيث ارتقاها أعضاء فرقة برازيلية وراحوا يأخذون مواضعهم مع آلاتهم الموسيقية، يتفحصونها والمغنية السمراء تعدل مشد صدرها وتتأكد من جاهزيّة الميكرفون. صعد أبي وافتتح الحفل بفقرة كوميدية، هي خليط من لغات وروسا تترجم أحياناً، مازح خلالها بعض القريبين منه. ضحكٌ. تصفيقٌ... ثم اشتعل المكان بأغاني السامبا وماجت الأجساد راقصة يهزها الطبل الذي يقرعه أسمر مفتول العضلات متصبباً عرقاً وهو يعض على شفته تركيزاً تارة ويطلق صرخته نشوة ساخنة أخرى.. تزيد من اشتعال اهتزاز الراقصين..

نظرتُ إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. نظرتُ إلى فاطمة فوجدتها تتحرك بكثرة، تكاد تطير بين الجهات تلبي الطلبات كنحلة مؤدية عملها بلباقة وخفة دون أن تكف عن التبسم. وعلى الرغم من طغيان الصخب الذي يجبرنا على تقريب الوجوه والصراخ عند التحدث.. سألتها:

Twitter: @ketab_n

- كيف تم جمع كل هؤلاء المتناقضين معاً؟!.

ضحكت وقالت:- الكل يسأل السؤال نفسه.. إنه صاحبك نوح، لذا يسميه بعضهم بالرئيس أو المعلم وبعضهم يسميه المسيح لأنه جمع بين الذئب والحمل وآلف بينهما.. لكنه يرفض تسمياتهم ولا يقبل إلا اسمه الذي يجده البعض أكثر تطابقاً معه لأنه جمع في مركبته الواحدة بين كل الكائنات على اختلاف أنواعها.. وروسا تقول إنه يحب اسمه كثيراً ويقول بأن الله هو الذي سماه بهذا الاسم.

فجأة.. ومثلما يحدث في مشهد فيلم كوميدي، بينما كنا نتحدث عن قدرته على الجمع بين المتناقضين بسلام، تعالت ضجة وصياح بين زبونين وسط حلبة الرقص، وطارت من هناك قنينة بيرة فارغة تحطمت على أصابع الكف اليسرى لفاطمة التي كانت تمسك بالحنفية من أعلى تصب لأحدهم، فصرخت واختلط دمها بشراب الكأس الذي كانت تملأه. توقفت الموسيقى وانبثق أبي من بين الجموع مقترباً من فاطمة يهدئها ويتأكد مما أصابها؛ فكان جرحاً موزعاً على ظاهر أصابع كفها الأربعة، قال لها: آسف.. وبسيطة. وأمرني بشد جرحها والعناية بها ثم عاد إلى المتخاصمين وعلا صوته على أصواتهم جميعاً، زاجراً، وفرق بين المتخاصمين بمساعدة آخرين حتى باعد بينهما وأجلسهما، وهو يشتمهما ويؤنبهما وسط صمت الجميع..

في أثناء ذلك، انتقلت أنا إلى خلف دكة البار مع فاطمة، وأمسكت بكفها الدامية أغسلها بالماء وأهدئها، فيما في الحقيقة كانت هي هادئة أصلاً، لكن المفاجأة قد أفزعتها قليلاً. ورحت أنشّف كفها بصدريتها التي سارعت هي إلى خلعها، ورأيت حجم صدرها لأول مرة، فوجدته صغيراً لكنه بنهدين متينين متباعدين ومنتصبين مثل نهدي

Twitter: @ketab_n

فتاة في أول طلوعهما. جاءتني روسا بقطن ولفاف طبيين، وقنينة يود أخرجتهما من صندوق صيدلية صغير كان معلقاً في إحدى الزوايا المظلمة.. فأجلستُ فاطمة على كرسي قريب ورحت ألف لها كفها دائراً حول الأصابع منفردة ثم مجتمعة.

كان أبي قد صعد إلى دكة المسرح غاضباً، وراح يخطب بالجمع عبر الميكرفون، مذكراً إياهم بشروط محله، ورفضه للعنف بكل أشكاله، مازجاً في أسلوبه بين الجدية والمزاح. وبعد انتهائي من شد كف فاطمة، نهضَت معي وذراعي على كتفها، ورحنا نتطلع إلى أبي الذي وجدته يقول في تلك اللحظة خاطباً بالإنكليزية مترجماً لنفسه إلى الألمانية وروسا جواره مترجمة إلى الإسبانية: هذا مكان للفرح، للتعايش، للتسامح، للتعارف، للحب، للسلام، للرقص، للحياة، للتقبيل (يقبل روسا ويضحك الحشد) وللتمتع بمداعبة الأجساد والمؤخرات (يمد يده إلى مؤخرة روسا فيضحكون ويصفقون). ممنوع العنف هنا والتعالي والعنصرية وادعاء القوة والبطولات، ومن يريد منكم العنف والفروسيات والبطولات الفارغة فهذا جواز سفري (يخرج جواز سفره من جيبه ويرفعه) ليأخذه وليذهب إلى العراق وأنا أضمن له هناك بأنه سيجد العنف.. سيعلمونه الأدب، سيدسون له عضلاته في مؤخرته وسيأكل الخراء الذي يريد.

فتعالى الضحك والتصفيق. نزلَ وصالح بين المتخاصمين وجعلهما يعانقان بعضهما ويعتذران، ثم أشار إلى الذي رمى القنينة التي جرحت أصابع فاطمة أن يعتذر لها، فتقدم منا ألماني بدين وراح يعتذر لفاطمة، فقال له أبي من خلفه: قَبّل كفها يا حمار.. مثل الرجال المحترمين للسيدات المحترمات. ففعل الشاب مبتسماً وابتسمت فاطمة وهي

Twitter: @ketab_n

تقدم له كفها. وصفّق الجميع فيما صرخ أبي بالفرقة الموسيقية: والآن هيا لنواصل سهرتنا.. فتعالى الصخب والرقص من جديد.. ثم عاد أبي إلى فاطمة واحتضنها قائلاً: فطومتي حبيبتي.. كيف أنتِ؟. تفحص كفها الملفوفة وقالت له: لا.. بسيطة.. جرح خفيف. وقال لها: يمكنكِ أن تذهبي إلى بيتكِ أو بيتي أو حتى بيت سليم إذا أردتِ. قالت: لا.. أنا بخير ويمكنني البقاء هنا والقيام بمسألة الحسابات على الأقل.

ـ حسناً كما تريدين.. اجلسي إذاً، ومتى ما شعرت بالألم أو بالرغبة بالمغادرة يمكنك أن تفعلي ذلك.

ثم صفعها على مؤخرتها، وعاد ليغيب وسط الحشد تتعالى ضحكته على الصخب. قلت لفاطمة:

ـ أين تسكنين؟

ـ في منطقة باراخاس، قرب المطار.

ـ وكيف تذهبين إذاً كل ليلة؟!.

ـ أحياناً آخذ تكسي وإذا ما تأخرت آخذ المترو عند أول فتحه في السادسة.

ـ وبيت السيد نوح؟.

ـ هنا قريب في الشارع المجاور.

ـ عموماً إذا أردتِ أن تذهبي إلى بيتكِ أو بيته أو حتى إلى بيتي، فأنا على استعداد لمرافقتكِ.

ـ لا.. شكراً أنا بخير.

خرجتُ من خلف دكة البار وعاودت الجلوس في مكاني أمامها.

Twitter: @ketab_n

وبعد ساعة تقريباً حين وجدت الأجواء تعود إلى طبيعتها. الرقص يتواصل والشرب يتواصل وفاطمة تواصل عملها في الحسابات بكفها اليمنى دون أن تغادرها ابتسامتها. دونت لها عنوان بيتي على منديل ورقي أخذته من علبة أمامي، وودعتها ثم غادرت باتجاه بيتي.

Twitter: @ketab_n

-٨-

لم أستطع النوم إلا متأخراً. كنتُ أدخن وأستعيد ما حدث وما عرفته اليوم عن أبي. إذاً فهو ما يزال يحفظ القرآن، ويُقر معتزاً بصيغة تسميات جدي لعائلتنا التي يعتبرها أسماء اختارها الله لنا. يفرض على فاطمة حفظ سورة البقرة فيما يصفع مؤخرتها كلما مرت بقربه!.. وهو الذي ثار كالثور وقلب حياتنا كاملة بسبب شاب صفع مؤخرة أختي إستبرق!.. يدير هذا الجمع المتناقض من الناس وهو الذي كان طوال حياته يترك شأن إدارة عائلتنا بل وإدارة نفسه لجدي.. يطيعه بلا نقاش، بل ودون النظر إلى عينيه!.. يشرب الآن خمراً بنهم وهو الذي لم يكن ليترك صلاةً أو صياماً أو أمراً دينياً دون تنفيذه!.. يعاشر روسا وهي ليست زوجته!.. (وكيف يعاشرها بعد ما أحدثه التعذيب الكهربائي في خصيتيه؟!).. فمه يتدفق بأقذع الشتائم بكل اللغات.. وهو الذي لم ينطق في حياته بكلمة نابية!.. ضحكته أشد صخباً من ضحك الآخرين مجتمعين.. فيما كان إذا ضحك؛ لا يتجاوز التبسم لأن المؤمن الصالح إذا ضحك عليه ألا يقهقه!.. أفكر بأن أبي في داخله اثنان، هناك كان يخفي الذي يمارسه هنا، وهنا يخفي الذي كان يمارسه هناك.. دون أن يتخلى عن أحدهما نهائياً، وأحياناً يطَعِّم أحدهما بالآخر.. فماذا عن طبيعة موت جدي إذاً؟!؟.

كان حلم جدي تشييد ما يمكن تسميته بالمدينة الفاضلة أو القرية

Twitter: @ketab_n

الفاضلة، على الأقل، لذا فإن حدث الاصطدام بالحكومة كان بمثابة فرصة مواتية لتنفيذ هذا الحلم، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير في العامين الأولين من انتقالنا. مكان نموذجي للعزلة، شبه جزيرة صغيرة يطوقها النهر من جهات ثلاث والجبل من الجهة الرابعة. جعل المسجد مركزها، أكبر وأهم وأجمل مبانيها على الرغم من كونه مجرد صالة كبيرة بمحراب، ألحق بها غرفة صغيرة وحمّاماً، وصنع رفوف مكتبتها بنفسه من أغصان أشجار الغرب والطرفة واضعاً عليها كل كتبه التي لا يزيد عددها على الخمسين، أكثرها دينية وتاريخية وأساطير شعبية.. كانت بمجملها رصيد قراءاتي الأولى حيث قرأتها كلها لفائض الوقت حينها.

إن عدم تأخر جدي باختيار المكان وقرار الرحيل إليه.. ربما هو التفسير الأدق لوقفاته الطويلة المتأملة من نافذة مضيف بيتنا في قرية الصُبح على مدى أعوام.. ربما كان تفكيراً بهذا الأمر. وإصراره على قبول التسمية المُهينة في بداية الأمر والوعد بتغيير التسمية بعد الثأر للكرامة، خطوة تكتيكية مقصودة، تنطوي على نيته في تحديد هدف لنا، علينا النضال من أجل تحقيقه، وربطه بالتسمية يعني تذكرنا الدائم له. وقال حينها: ليكن النبي قدوتنا، في كل شيء، فهو الذي غير اسم (يثرب) إلى (المدينة المنورة) بعد أن هاجر إليها، ليحقق هناك نواة الدولة الإسلامية التي امتدت إلى بقاع الأرض من بعده. ونحن أيضاً بعد أن نثأر لكرامتنا سنسمي قريتنا هذه بالأحرار أو المطلق أو الكرامة.

حينها.. وحتى اليوم لم تكن تعجبني تلك التسميات لكونها مغرقة في عمومية تقليديتها، بل إنني كنت في داخلي أفضل عليها تسمية (القشامر)، على الأقل من ناحية جمالية لفظها الصوتي، وربما إن أبي كان لديه الرأي ذاته فقد سمى مرقصه هنا بالاسم نفسه.

Twitter: @ketab_n

في العامين الأولين من انتقالنا، لاحظنا توقد الحيوية في جسد جدي وفي ذهنه.. بل وتحسن في صحته، حيث لم يكتفِ، أكثر الأحيان، بإعطاء الأوامر والخطط (الهندسية!) والإشراف على العمل، وإنما يعسر عليه منع يديه من المشاركة فيه. كان يقول: ستكون هذه بلدة طيبة، دستورها القرآن ونظامها الشريعة، سنجعلها نموذجاً للفضيلة وقاعدة أرضية ينطلق منها الناس إلى الجنة السماوية. فكان يمارس فيها دور الحاكم المطلق الذي لا تفوته التفاصيل، يحمل أعوامه التي قاربت الثمانين مستنداً على عكازه الباكستاني ويطوف القرية يومياً، يعمل على عقود الزواج ويبارك المبكر منها ويقيم الحد على المخطئ ويصلح بين المتخاصمين. يزور المرضى ويقرأ على مواضع أوجاعهم رقىً ونصوصاً قرآنية. ينهر النساء الكاشفات عن سيقانهن أمام طشوت الغسيل ويحاسب التي تثقل منهن بالحِمل على حمارها ويقدم النصائح ويعلم الصغار والكبار شؤون دينهم ودنياهم.. يتدخل في كل شيء ويهيمن على كل شيء.. حريصاً على تطبيق ما كان يسميها (حدود الله) بحذافيرها.

جعل من صالة المسجد المجاورة لبيتنا مسكناً له، ومقراً لإدارة كل الشؤون، هناك الصلاة واللقاء والاحتفالات الدينية، وهناك مجلس القضاء والسمر والنجوى والتعبد، وهناك المدرسة التي تعلمنا فيها جميعاً، وهناك الكتب وعلب حلوى وكيس تمر وسم للفئران وسيف موروث..

اختار أكثرنا سُمرة وقوة كمؤذن.. اقتداءً باختيار الرسول لبلال الحبشي. ولأنه لم يشأ تغيير اسمه، أمره بتسمية ابنه بلال، وكان يناديه بـ(أبو بلال) حتى قبل أن يأتيه من أطلق عليه هذا الاسم فعلاً. وأمر ببناء

Twitter: @ketab_n

درج يرتقيه إلى السطح ليطلق آذانه من هناك، فكنا نصحو فجراً على صوته الذي صار أجمل مع مرور الوقت وتعليمات جدي، كما كنا نقيس الوقت وفقاً لمناداته الخمس إلى الصلاة. فيما خصص آذان صلاة الجمعة لأبي، ربما بقصد إجباره على المجيء من عمله في كركوك نهاية كل أسبوع، وقد كان أبي هو الوحيد الذي يغادر القرية، ليصبح، على هذا النحو، صلة الربط الوحيدة بالعالم الخارجي، ولشدة طاعة أبي لجدي.. فكنتُ على يقين من أنه سيترك العمل الذي يحبه لو أن جدي قد طلب منه ذلك.

اشترط جدي عليه أن يكون دربه عبر الجبل وليس عبر قرية الصُبح، حيث اتخذ أبي لنفسه درباً صنعته الماشية لعبور الجبل إلى الضفة الأخرى والوصول إلى الطريق العام الذي يربط الموصل ببغداد، ومن هناك يُوقف السيارات الذاهبة باتجاه الموصل ومنها إلى كركوك. كان، أحياناً، يذهب ماشياً لأكثر من ساعة لعبور الجبل، وفي أخرى يرافقه أحدنا على حمار حتى هناك، فكنت أنا أكثر من يفضل القيام بهذه المهمة لأن أبي يحدثني عن العالم الخارجي خلال الطريق وعن الألمان الذين يحبهم. يقول عنهم: يعجبهم كثيراً أكل الحلوى ولديهم منها شتى الأنواع، سأجلب لك في المرة القادمة قطعة شكولاته.. إنهم مثل عائلتنا المهووسة بالتمر لكن حلواهم لا تُحصى بألوانها وطعمها. ومن ذلك، أيضاً، أذكر حديثه ذات مرة عن الألمانيات، فاسترسل كأنه وحده.. أم تراه قد قصد الإيحاء لي بالصداقة، ومعاملتي كرجل حينها؟!: الشَعر كحقل القمح في موسم الحصاد.. زغب نهودهن وعاناتهن حفنة عشب ذهبية.. لكن الرائحة!؟.. المؤخرات هي الأقل جمالاً فيهن لأنها ليست كروية تماماً وإنما بمثابة امتداد للظهر والفخذين.. مؤخرات بلا هوية!. لو وضعن الكحل الأسود وسط

Twitter: @ketab_n

وجوههن الذهبية دائرياً على عينين خضراوين.. شيء مذهل الجمال.. مذهـل!. أثداء عامـرة رجراجة، وجوه وأجسـاد كالزبـدة.. ولكن كأنها بلا ملح.. فهل لأن الزبدة تؤكل مع السـكر لا مع الملح؟. كثرة البدينات.. ضخمات الجثث.. طويلات تصل قامات بعضهن بارتفاع تلك الشـجرة.. تلك.. هل تراها؟.. نعم.. صـدقني.. هن أقل ثرثرة من غيرهن ممن عرفت من الأجنبيات. باردات بعض الشـيء.. أفلهذا يحببن الشمس؟.. وفي الشمس يصبحن حمراوات كالطماطم.

يحدثني عن أجانب آخرين كنت أتخيلهم عشـائرَ مثلنا، فرنسيين وتايلنديـين وأمريكان وهنوداً.. وإنكليزاً يقـول عنهم: لا أحبهم لأن ابتسـاماتهم صفراء. فأتساءل لحظتها في نفسي عن سر بغضه للإنكليز لأن ابتسـاماتهم صـفراء مقابل حبه للألمان الذين لهم شَعر أصفر..!، لكننـي سرعان مـا أتجاهل تسـاؤلي لعدم فهمي لمعنى كون الابتسـامة صـفراء، ولكي لا أقطع استرساله المتوهج في حديثه عن الألمان: هناك في بلاد الألمان، يا سـليم، تتوفر اشـتراطات الاشـتهاء العربي، يعني: الماء والخضـرة والوجه الحسـن. ألمانيا كلها عبارة عـن حقل أخضر.. هـل تفهمني؟.. ربما هـم جادون حد الجفاف واليباس في التعامل.. كأنهم يعيشـون للعمل وحسـب.. إنهم عنيـدون، مثل جدكَ، ولهذا يلين لهم الحديد فيصـنعون به أفضل السيارات.. ناجحون في الحديد والموسـيقى.. يشـدهم التحدي لهذا بنوا بلدهم بعـد الحرب بسرعة وتفوقوا على عدوهم في البناء.. هناك لديهم الحرية. كل إنسـان يقول مـا يريد ويفعـل ما يريد دون أن يتدخل في اختياراتـه أحد.. الحرية يا سـليم.. آه.. الحرية.. هل تفهمني يا سليم؟؟. أقول: نعم يا أبي. على الرغـم من أنني كنت أتخيل ما يقولـه على طريقتي أكثر مما كنت أفهم ما يعنيه. كان الأمر بالنسـبة لي صـوراً مدهشـة كالصور التي حفرها

Twitter: @ketab_n

في مخيالنا جدي عن الجنة. أطعِّم أوصاف جدي بأوصاف أبي حد التطابق أحياناً والفرق هو أن الذي يصفه أبي موجود في الأرض أما الذي يصفه جدي فوجوده في السماء.

في أثناء صعود الحمار للجبل يضعني أبي أمامه كي لا يميل جسده الضخم على جسدي الصغير، وعند النزول يُردفني خلفه كي أستند على ظهره. وكانت لحظات تطويق ذراعي لجسده واحتضانه هي أحب اللحظات إلى نفسي.. حيث الإحساس بقربي لأبي واتحادي به. كنت أشعر بحنان لذيذ وثقة ودفء لأنها أشد حالات التصاقي به، أشعر بحب كبير له وبحبه لي.. وكأنه هو الذي يحتضنني وليس العكس.

عند الوصول إلى الشارع العام، ينزل هو ويأخذ حقيبته من الخرج ثم يقول: كما تعرف؛ إن رضا الله من رضا الوالدين وأنا راض عنك يا سليم مهما تفعل، ولكن عليك أن تحرص على إرضاء جدك وأمك أيضاً.. أوكي؟.. فأهز رأسي بالموافقة وأتمتم: أبي لا تنس.. فيقاطعني مبتسماً: نعم أعرف.. سأجلب لك مجلات ألمانية ملونة.. لا تهتم. يلف ذراعه حولي محتضناً دون أن يُنزلني عن الحمار ويقبلني. وهي المرات الوحيدة التي يقبلني فيها، فلم يفعل ذلك بحضور أحد على الإطلاق، لأن جدي يرفض التربية المائعة للرجال.

ـ اذهب الآن.. مع السلامة يا سليم.

أسحبُ حبل الحمار مستديراً: مع السلامة يا أبي. وأظل أتلفت إليه وأنا أبتعد حتى أراه وقد صعد إلى إحدى السيارات، وحين أكون على مسافة نرى فيها بعضنا يلوح لي من نافذة السيارة بكفه وألوح له.. وأظل ناظراً إلى السيارة وهي تبتعد إلى أن تصبح نقطة صغيرة

Twitter: @ketab_n

تتحـرك على الخط الأسـود للشـارع وتغيب.. بعدها أواصـل درب عودتـي مفكراً به وبالمجلات الملونة الألمانية التي سـيجلبها لي وأقص من صـورها، ألصـقها في دفتري وأريها لعالية واعداً إياها بحلم شبيه بالصور.

.. كأن علاقتي بأبي كانت علاقة عاطفة وروح فيما علاقتي بجدي علاقـة عقل ونُظم. فلم أكـن مختلفاً عن غيري من أبناء قرية القشـامر مـن حيث شـعورنا والتزامنا الكلـي بالمنظومة التـي خلقها لنا جدي وربطنا بها، وخاصـة أنها كانت مريحة وناجحة ومتطورة في العامين الأولين، حينما ساد الرضا والانسجام والتوافق حياة الجميع. وكانت ذروة احتفاليتنا هي صـلاة الجمعة حين نجتمع جميعاً، كباراً وصغاراً، الذكور يشـكلون الصفوف الأمامية وصـفوف النساء خلفهم. نلبس أفضـل ثيابنا ونتعطر. وفي الربيع نفرش سجاداتنا على الحصى والرمل خارج المسجد ويقف جدي مرتفعاً أمامنا على دكة الدَرج الخارجي، يخطب بنا فنشـعر بتوحدنا الكامل وتآخينـا ونقاء أرواحنا وقربنا من السـماء والله. حيث تهدر تكبيراتنا عند الصلاة ويدوي نطقنا المشترك لكلمة (آمـين) مُتحداً مع أصـوات أمواج النهر وحفيف الأشـجار، وصـداها البعيد على سـفح الجبل يمنح المناخ رهبة أسـطورية شـبيهة بتصورنا عن يوم القيامة.

كانت تلك أشـد لحظاتنا توحداً وسلاماً وطهرانية روحية.. نشعر بأن لنا روحاً واحدة. أما على صُـعد الذهنية والمفاهيم فقد كنا نشـعر بتوافـق تام وكأن لنا عقلاً واحداً مشـتركاً نفكر بـه أو يفكر لنا.. ألا وهو جدي.. الذي كان حتماً سـيحقق حلمه بالقرية الفاضلة لولا أن فاجأنا ذات صـباح هديـر الجرافات في أعلى الجبل وهي تشـق على مسار درب أبي الصغير شارعاً عريضاً نحو قريتنا جاءتنا عبره الحكومة

Twitter: @ketab_n

بمسؤوليها وأعمدة الكهرباء وأهدتنا التلفزيونات وبنت لنا مدرسة من الإسمنت.. وباءت كل محاولات جدي لصدها بالفشل، لذا صار أكثر حزناً وغضباً وهزالاً.

لقد اشتدت الحرب على الجبهة مع إيران لذا كانت الحكومة تبحث عن المزيد من الشباب والرجال في كل زوايا العراق لتجنيدهم. كانت صحة جدي تزداد انهياراً كلما رأى تزايد انهيار حلمه، وتقياً دماً حين عرف بأن الحكومة قد سجلت قريتنا في أوراقها الرسمية باسم قرية (الفارس) قاصدة بذلك الدكتاتور، لذا أعاد جدي في خطب الجُمع اللاحقة تأكيده لنا على التمسك بتسمية القشامر حتى يوم الثأر للكرامة.. يوم نُبدل لها اسمها المنتظر بقرية (الأحرار) مثلاً.

اتسعت الجبهة على جدي ومع ذلك لم يكف عن محاربته لما فيها، ووسيلته الأقوى خطب صلاة الجمعة: التلفزيون هو الشيطان في بيوتكم وسيفسد عليكم نسائكم، إنه (الأعور الدجال) ولهذا فهو بعين واحدة. مدرسة الحكومة تعلم أبناءكم الكفر والابتعاد عن الله. الشرطة كلاب الظالم. الحرب على إيران المسلمة عدوان لا يقبله الله. هذا زمن صعب يكون فيه المتمسك بدينه كالقابض على جمرة من نار، فاصبروا واقبضوا على دينكم مهما تكويكم جمرة زمانكم، فهي أهون من أن تدخلوا نار جهنم في الآخرة وتخلدوا في الجحيم. لكن خوف الناس من بطش الحكومة كان أكبر من خوفهم من تهديدات جدي المؤجّلة حتى العالم الآخر.. فراحت خيوط السيطرة تنسل من بين أصابع جدي على الرغم أن الناس ظلوا في القرية يظهرون له التبجيل والطاعة.

لقد تمكنت الحكومة من إحصائنا مجدداً بعد أن جاءت بشرطة

Twitter: @ketab_n

يفوقوننا عدداً وتسليحاً، واستخرجت لنا بطاقات جديدة حاذفة منها لقب القشامر وكذلك لقبنا القديم تاركة إيانا على أوراقها مجرد أسماء حيادية بلا ألقاب. وبعد أن حددت عدد الشباب والرجال المؤهلين للعسكرة أمرتهم بالذهاب إلى الجيش، لكنهم امتنعوا بعد خطبة ثائرة لجدي، لذا قررت المداهمة ليلاً للقبض عليهم واحداً واحداً، فأعدهم الشيخ ملا مطلق للمقاومة، ووزعهم مسلحين بالبنادق والمسدسات والفالات والفؤوس والهراوات والسكاكين على أسطح البيوت وفي خنادق بينها ووسط الأدغال وخلف صخور أسفل السفوح.

في تلك الليلة، التي كانت ستنجلي عن خراب ومجزرة حقيقية، كان لأبي الفضل في إنقاذ القرية حين تمكن من قطع الكهرباء من المحولة الرئيسية القائمة في وسط القرية، مما جعل الحكومة تتراجع عن المهاجمة الليلية للقرية، وجاءت نهاراً إلى البيوت واحداً واحداً. اضطر الرجال بعدها للذهاب مع الشرطة طوعاً كي لا يُهانوا على مرأى من نسائهم وأطفالهم. وما كان لجدي من حيلة أخرى غير مواصلة الشد من تصبير الناس بوعود الفرج القريب.. ومقابل ذلك راح يكثف من دروسه للصغار في المسجد، منافساً ومصححاً ما تقوم بتعليمهم إياه مدرسة الحكومة. حتى جاءت الضربة القاصمة لظهره وروحه؛ يوم نزل، قبيل الغروب، رتل سيارات حكومية كنمل أحمر زاحفاً على التواءات الشارع الأسود، وتوقفت وسط القرية مُنزلة سبعة عشر تابوتاً ملفوفة بالأعلام فيها جثث شباب القرية الذين قُتلوا في الهجوم الأخير على الجبهة، وكان بينهم أحمد وفندي وصالح وناصر وقيس وحسن وجمال ومحمود ومضحي وخيرالله وعبدالله وصراط، حبيب أختي إستبرق، وأخي حكيم. أنزلوها وغادروا صاعدين برتل سياراتهم على سفح الجبل وغابوا تاركين لقريتنا أشد لياليها سواداً مفجوعة بالعويل

Twitter: @ketab_n

المُر.. مزقت النساء الأعلام لأنهن كن بحاجة لتمزيق أي شيء، وخاصة بعد منع جدي لهن من شق الثياب جزعاً على الأموات.

تحولت ساحة القرية إلى بقعة من الجحيم البكائي حول التوابيت. وجلس جدي على كرسيه صامتاً يكظم بكاءه حتى منتصف الليل حين هد الحزن سدود تصبره فانفجر بالبكاء وسقط مغشياً عليه.. فحملناه إلى فراشه في زاوية المسجد.. وهناك، بعد أن رششنا على وجهه الماء البارد وفتحنا رأس بصل أمام منخريه، صحا قليلاً وأمر المتحلقين حوله من الرجال بعدم دفن الجثث إلا بعد الثأر لها هذه المرة.. وغفا غائباً في غيبوبته الأخيرة.

على مدى أسبوع كامل راحت معه الجثث تتعفن وتنتشر رائحتها في كل مكان.. على الرغم من محاولات النساء في رش العطر وتكويم باقات الزهور على التوابيت، والرجال يعاودون جدي المسجى، يكررون عليه طلب السماح لهم بدفن الجثث، دون أن يجرؤ أحدهم على تذكيره بأن الإسلام مع الإسراع في دفن الميت، فهو أعرف منهم، لكنه كان يرفض بهز رأسه دون أن يفتح عينيه!.

قريتنا لم تعد تطاق برائحتها وبكآبة أهلها، تحولت إلى كابوس خانق، قل الكلام بين الناس وساد الصمت إلا من نحيب النساء، كف الأطفال عن اللعب واكتفوا بتمضية الوقت الفائض بالتجوال التائه والتحديق. أبي لم يذهب إلى عمله وظل إلى جوار جدي يوضئه عند كل صلاة ويوجه وجهه إلى مكة فيراه يصلي بعينيه من خلال رؤيته لتحرك جفنيه المطبقين وتحريك الشفاه. حينها قررت أنا المغادرة بعد أن أمضيت الأيام الأخيرة بالتجوال بين زيارة قبر عالية وعُشنا والشاطئ الذي غرقت فيه.

Twitter: @ketab_n

لم أستطع النوم في ليلة القرار الأخيرة، فكنتُ أتقلب في فراشي وأنهض عنه، أجول حول البيت ثم أعود إليه.. حتى بدأ الفجر يتململ في ولادته، فحسمت الأمر بأن أخبر أبي وأغادر. توجهت صوب صالة الجامع لأنه ينام هناك إلى جوار جدي، وما إن مررت قرب النافذة حتى سمعت صوته يجادل حانقاً. توقفتُ، ونظرتُ من النافذة فلم أر شيئاً بحكم الظلام، لكنني بقيت متسمراً في مكاني وأنا أقشعر لسماع صوت أبي بهذه النبرة الغريبة لأول مرة في حياتي.. كان صوته قوياً واثقاً وفيه تفجُّر احتباس ومعاتَبة مريرة.. يتوجه بها إلى جدي الذي لم أسمع له إجابة..

أبي يصرخ بوجه جدي حتماً، إذا ما كان أمام وجهه في هذه الظلمة، ومن بين ما تناهى إلى سمعي قوله وسط اختناقاته بالبكاء والغضب: أبي أوقِف صعودكَ وتعاليك وخفف قليلاً من ثقل كرامتك، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا. لن تُصلح العالم وحدك، لن يكون العالم كما تريد ولا كما يريد أي أحد، كف عن تعاليك على ضعفنا فنحن بشر وجثثنا تتعفن. ارحم ضعفنا وواقعيتنا وأخطائنا.. أبي، بالنسبة لي، أنتَ إله أو ممثل الرب في الأرض أمامي.. لكنني بشر محكوم بمحدوديتي، والبشر يتمردون على آلهتهم في لحظات ضعف أو في لحظات قوة.. أبي إنني أختنق بقيودكَ وأضيق ذرعاً بأوامرك ونواهيك. إن روحي تقوى بالتزامها بك لكنها تتوق للتنفس بعيداً عن رقابتك.. أبي إني أحبك بشكل يفوق محبتي لنفسي أحياناً، لكنني في أحيان أخرى أتمنى عدم وجودك.. أبي أحدثكَ في الظلام لأنني لا أستطيع رؤيتك. لم أنظر إلى عينيك في حياتي ومع ذلك فهما أشد حضوراً من عينيّ ذاتهما. أرى بعينيك أنتَ اللتين لم أرهما فيما عيناي تتوقان لممارسة

Twitter: @ketab_n

وجودهمـا قبل التعفـن.. جئتنا تتعفن يا أبي فارحم ضـعفنا.. إنك تقودنا إلى الهلاك..

بـدأ الفجـر يتنفس وصـرت أرى أبي منحنياً على جسـد جدي وجهاً لوجـه وكفاه على صـدره أو على جانبيه.. وجدت نفسـي أرتعش بفعل ما سـمعت وما رأيت، لذا سارعت بالمغادرة عائداً إلى فراشي.. أرتجف، وكنت أشك في كوني نائماً أو يقظاً، مبلّلاً بالعَرق وحلقي جاف. تكـورتُ كالجنين تحت اللحاف ورحت أفتح عينيّ وأغلقهما في الظلام مستمعاً إلى قرع دقات قلبي وتسارع تنفسي.. حتى سـمعت صـراخ أمي: يا ويلـي الملا مات. وأبـي ينادي لآذان الفجر من على سطح المسجد.

نهضتُ ووضعت في حقيبتي من أشيائي ما استطعت، ثم سارعت بالتسـلل إلى سرير إسـتبرق، المريضـة حزناً علـى فقدها لصراط، في الغرفة المجاورة وهمست لها: إستبرق حبيبتي، لم أعد أحتمل البقاء هنا، سـأغادر القرية، سـأغادر البلد كله، سـأهجر كل شيء هنا ولا أدري إلى أين سـأذهب ولا كيف.. سـأذهب إلى أي مكان آخر ولا أدري متى سـأعود.. لكن الذي أعرفه هو أنني لم أعد أحتمل البقاء هنا لحظة واحدة.. إنني أختنق.. إنني أختنق حد الموت.

Twitter: @ketab_n

- ٩ -

استيقظتُ على قرع جرس الباب الخارجي، ونظرت إلى ساعة المنبه جوار رأسي فوجدتها السادسة إلا عشر دقائق صباحاً. نهضت متوجهاً إلى سماعة هاتف الباب، وسألت: نعم.. مَن؟.

جاءني الصوت:- أنا فاطمة.. آسفة لإزعاجك ولكنني أريد التحدث معك.. ضروري.

- هاه.. فاطمة.. اصعدي.. اصعدي أنا في الطابق الرابع، تفضلي.

تركتُ الباب مفتوحاً وسمعت خطواتها تصعد أولى درجات السلم، فيما سارعت إلى الحمام، غسلت وجهي، تمضمضت ورتبت شعري على عجل، ثم سارعت بتنظيف سطح طاولة الصالة التي كانت مكتظة بمنفضة السجائر المليئة بالأعقاب ونوى التمر وعلب اللبن الفارغة والصحف المبعثرة. بعدها، ذهبت إلى الباب واقفاً بانتظارها حيث اقترب وقع خطواتها من الوصول. كانت تلهث بسبب الصعود وكررت عليها جملة المجاملة الروتينية لكل اللاهثين بالصعود إلى شقتي، والتي تعلمتها من بيلار: هذه رياضة.. يقال إن صعود السلالم يقوي عضلة القلب.

مددتُ لها يدي مصافحاً ومعيناً لها على صعود آخر درجتين، فابتسمت وهي تقول:

Twitter: @ketab_n

ـ صباح الخير.. ثم أضافت: وماذا سأفعل بقلب قوي العضلات ما دام ليس لدي نية إرساله للمشاركة في الأولمبياد!.

ضحكنا معاً وقدتها إلى الدخول. كانت آثار التعب والسهر واضحة عليها. شعيرات الدم الحمراء خضبت بياض عينيها، ولاحظتُ أن شعرها طويل وجميل التصفيف. بشرة وجهها متعَبة ولامعة كأنها مدهونة بالزيت. رأيت ذلك حين مرت من تحت المصباح المعلق في الممر. وقدتها للجلوس في الصالة، فألقت نفسها ارتماءً وأطلقت زفرة قوية، أو كما يقال؛ تنفَّس الصُعداء. ومثل كل الذين دخلوا إلى بيتي، أيضاً، راحت تحدق بصور العراق التي تغطي الجدران، وقالت: هذه أول مرة أرى فيها بيتاً بهذا الشكل.. أهي صور من العراق؟.

قلت: نعم ألصقها بنية التخفيف من غربتي لكنها في الحقيقة تزيدها.

قالت إنها فكرة جميلة وفي وقت لاحق ترغب في أن تتفحصها صورة صورة لأنها تحب العراق ولا تعرف عنه الكثير. كانت ترتدي فستاناً بسيطاً مما جعلها أكثر أنوثة في نظري، أنا الذي لم أر في سنواتي الطويلة هنا إلا نساء قليلات لا يرتدين البنطلون. وسألتها إن كانت تريد أن تأكل أو تشرب شيئاً، فقالت: لا شيء سوى قليل من الماء. جلبتُ لها كأساً وجلست قبالتها سائلاً إياها عن جرح كفها، فقالت: لابد أنه أحسن، ولكنه مازال يخزني، أحتاج إلى تغيير لفافته، هل لديك..؟. قلت: نعم، لدي يود ولفاف. ونهضتُ. فقالت: لا.. ليس الآن.. اجلس، جئت لأخبرك بما حدث وبضرورة أن تتحدث مع السيد نوح، أعتقد أنه الآن بحاجة إلى قريب يفهمه ويساعده.

ـ ماذا حدث؟.

Twitter: @ketab_n

ـ قبل ساعة، وفي نهاية السهرة، تخاصم وروسا، وذهبت هي غاضبة باكية إلى برشلونة.

ـ لماذا؟.

ـ لقد شرب السيد نوح في الأمس أكثر من اللازم حتى سكر، فزاد في مزاحه مع الزبائن والرقص مع الفتيات ومداعبتهن، وقبّل بعضهن أحياناً، فكانت روسا تتمزق غيرة وتكبح غضبها حتى انتهاء السهرة ثم بدأت المعركة بينهما.. وكانت إجاباته فظّة، فحملت حقيبتها وغادرت باكية تاركة إياه مترنحاً في سُكره. حاولت تهدئتها و لم أستطع، ثم قدتُ، مع إحدى زميلاتي، السيد نوح إلى بيته وتركناه هامداً على فراشه كجثة. نام بملابسه كما هو، وخلعتُ له حذائه ثم أغلقتُ المحل على فوضاه واتساخه وجئت إليك.

ـ وهل يحدث هذا دائماً؟.

ـ لا ليس بهذا الشكل.. فهو يشرب لكنه لا يفقد وعيه وسيطرته على نفسه.. بالأمس شرب كثيراً فسكر بشكل لم يحدث من قبل.. لا أعرف ماذا أفعل.. لذا فكرت بشخص آخر يعينني على الأمر، وعلى الرغم من أن السيد نوح له معارف كثر، إلا أنني لاحظتُ بأنه هو وروسا يكنان لك احتراماً ومودة خاصتين، ثم إنكَ من قريته وبلده وثقافته ولغته، لذا فكرت بأنك ستكون أفضل من يتحدث معه ويسمعه ويفهمه.. إنه صديقك على أية حال.. أليس كذلك؟.

أطرقتُ رأسي للحظات مفكراً بالأمر وبقرار الإجابة، تنفستُ بصوت مسموع، ثم نظرت إليها وقلت:

ـ إنه أبي.

Twitter: @ketab_n

الدهشة المفاجأة، ألقت بفاطمة مسندة ظهرها إلى الخلف، أوسعَت عينيها، وتغيرت كل ملامح وجهها، فغَرت فاها الذي سارعَت إلى تغطيته بكفها اليمنى: صحيح؟!.

أكدتُ لها الأمر دون تفاصيل أخرى، وقلت لها أن عليها أن تستريح، تنام، وكذلك لندعه هو الآخر ينام وبعد ساعات سنذهب إليه. قالت إن جسدها منهَك لكن ذهنها يقظ ولا تدري إن كان باستطاعتها أن تنام، لكنها بحاجة إلى الاغتسال وتبديل لفافة جرحها ثم الاتصال بشقيقتها لتطمئنها وإخبارها بعدم مجيئها اليوم إلى البيت. فقلت لها: نامي الآن قليلاً وبعدها سنرتب كل شيء. قالت: نصف ساعة ستكون كافية. قدتها إلى سريري في غرفة النوم وأخرجتُ لها إحدى بيجاماتي، لكنها أصرت أن تنام، هكذا، بثوبها.

أغلقتُ عليها الباب ونزلتُ أجلب خبزاً وجبناً وحليباً، ثم رحت أعد الإفطار لكلينا. جعلته هذه المرة أكثر ثراءً وتنوعاً مضيفاً إليه البيض والزيتون والمربى فليس من اللائق أن أقدم لها إفطاري اليومي التقليدي: قهوة بالحليب وبسكويت وسجائر. نامت أكثر من ساعة وكنتُ أسمع شخيرها الواطئ كشخير طفل بدين هده اللعب أو يخنقه مخاطه.

فرشتُ على طاولة الصالة الواطئة صفحات جرائد، كعادتي، ورحت أجلب الصحون أرتبها، ثم أعددت ماكنة القهوة، شغلتها، ودخلت إلى الحمّام أغتسل.. لأجد، بعد انتهائي وخروجي، فاطمة جالسة في الصالة. حييتها وكفاي مازالتا تديران المنشفة على رأسي.

ـ صباح الخير.. هل نمتِ جيداً؟.

Twitter: @ketab_n

قالت نعم، ثم أضافت متبسمة بخجل أنثوي: هل أزعجتكَ بشخيري؟.. فأنا أشخر حين أكون متعَبة.

ـ لا.. شخيرك بسيط جداً مقارنة بشخيري أنا المُدخن.. فهو يشبه زئير تراكتور غائص في الطين.

ضحكَت، وأشرتُ لها بالدخول إلى الحمّام، فيما دخلت أنا إلى غرفة النوم أستبدل ملابسي، ولاحظت بأنها قد رتبت فراشي بشكل أنيق لم أقم به أنا مطلقاً من قبل. فشعرت أن أحدنا (أنا والفراش) يبتسم غامزاً للآخر بمغزى. أخرجت من أحد أدراج الدولاب ما لدي من لفائف طبية ويود. حملتهما إلى الصالة ورحت أجلب القهوة، ووضعت في المسجل شريطاً لفيروز التي أدمنتُ، كغيري، سماعها في كل صباح، وجلست أدخن منتظراً خروج فاطمة.

انفتح باب الحمّام وأطلت برأسها ونصف كتف عار من خلف إطاره، شعرها يتدلى يقطر مبللاً، أرعشني مشهده الذي ذكرني بعالية السابحة أو الغريقة، وقبل أن يستغرقني هذا المشهد قالت من فم سعيد: ـ الله كم أحب فيروز!.. ثم سألَت: هل لديك منشفة ثانية أم أنشّف بهذه؟.

نهضت قافزاً: عفواً.. نسيت، طبعاً عندي. وجلبت لها على عجل منشفة أخرى، تلقتها ذراعها العارية فائحة برائحة المرأة والصابون. شكراً. وابتسامة. وأغلقَت الباب. رفعتُ من صوت فيروز، وجلست أدخن سيجارة أخرى بانتظارها وقلبي يزداد طراوة كزبدة تذوب وسط صحن زيت دافئ.

أكملنا إفطارنا بعد أن سألتها خلاله: لم تتذوقي التمر؟. قالت: أنا لا أحبه إلا في شهر رمضان. أشعرني ذلك بنوع من الخيبة، وقلت:

Twitter: @ketab_n

جربيه: إنه تمر عراقي. قالت: صحيح؟!. وتناولت واحدة على الفور. أنهت فيروز شريط أغنياتها، فيما رائحة جسد فاطمة الممتزجة بأريج الصابون تملأ المكان، وهي تقول ليَدي: شكراً لا أُدخن. رحت أسألها عن نفسها فوجدتها تسرد لي بثقة تحت تأثير استرخائها وشعورها بالراحة، فتتجلى لي حكايتها وشخصيتها تدريجياً مع تدرج زحف نور الصباح.

فاطمة من طنجة، تصغرني بأربعة أعوام، ومنذ أربعة أعوام تقيم في مدريد، لها أربعة أخوة (وتحب الرقم أربعة، إذا كان لهذا الأمر أهمية!). أختاها الكبيرتان متزوجتان، وهي والصغرى هنا، أما شقيقهن الوحيد فقد غرق في مضيق جبل طارق أثناء مغامرة العبور إلى إسبانيا في قوارب الموت. لقد ترك دراسته الجامعية قبل أن يكملها مضطراً، بعد أن تم طرد الأب من عمله في مطعم دام أكثر من ثلاثين عاماً، حين توفي صاحب المطعم وحوّله أبناؤه إلى ملهى، استبدلوا معه كل طاقم العمال بشباب ومنحوا والدها قليلاً من المال واستغنوا عن خدماته فقد شاخ ودبت في بدنه الأمراض. حاول الأخ سد تكاليف عيش الأسرة وعلاج الأب عبر أعمال شتى كانت تُرهقه ولا تَفي، لذا قرر المغامرة التي غرق فيها. كان يحدثهم عن أوربا الحلم والمال الوفير الذي سيبعثه لهم. تركت فاطمة دراستها أيضاً أمام حسرة والديها وأمراض الأب. تنقلت هي الأخرى عاملة بين مصانع للأحذية، وللنسيج وورشة خياطة، ومع ذلك كانوا يضطرون للمبيت بلا عشاء في أغلب الليالي. لذا لم تتأخر بالموافقة على الزواج من مغربي في زنقتهم حين طلب يدها في إحدى زياراته لأهله قادماً من إقامته الطويلة في إسبانيا، فجاءت إلى هنا حاملة حلم أخيها الذي لم يتحقق. لكنها بعد شهرين ونصف، اكتشفت إدمان زوجها على

Twitter: @ketab_n

الشرب وتسكعه. كان يضربها، ويصرف مالها الذي تجنيه من تنظيف بيوت الأغنياء، فانفصلت عنه، ثم جاء الطلاق. وراحت تبعث لأهلها ما توفره من مال ثم جلبت أختها الصغرى كي تؤانسها وكي تكمل حلم العائلة بأن يكمل أحدهم دراسته.

كنتُ أشعر في عمق نبرتها مسحة من ثبوت الثقة بالنفس وغلالة من الحزن الذي استطاعت فاطمة تقبُّله وهضمه بواقعية ترتكز على اتفاقها مع تكرار حكايتها وعاديتها، وتصل في ذلك إلى حد الرضا المتفهِم.. بل وتحويله، عبر الاستحضار أثناء ممارسة الحياة، إلى نوع من مصدر لاستمداد التَقَوّي ومن ثم الوصول إلى نوع من الشعور بالاعتزاز بالذات. ثمة شيء ما، أجهله، في فاطمة المغربية يذكرني، أحياناً، بكولاله الكردية!.

ولا أدري كيف قادنا الحديث مرة أخرى إلى أبي فوجدتني أجد مدخلاً مناسباً لأسألها عن معنى تقبُّلها لمداعباته، وتحديداً، لصفعه لها على مؤخرتها..!، فقد كان هذا الأمر يعنيني إلى حد عميق. فوجدتها، تضحك، ترنو بعينيها بعذوبة كمن يتذكر حادث عزيز، وراحت تحاول شرح شعورها لي تجاه أبي الذي تجد فيه أبوة تحتاجها.. وتبحث فيه عن صور من والدها؛ شرطه عليها في حفظ آيات قرآنية، أوامره لها في العمل، ثقته الخاصة بها وتسليمها صندوق الحسابات، إعطاؤه لها نسخ من مفاتيح المرقص وبيته، حاجته إليها في الترجمة، فهمهما لبعضهما باعتبارهما من ثقافة واحدة وسط أناس من شتى الثقافات، استعانته بها على فهم الكثير من محيطه الجديد، سؤاله لها عن أختها ووالديها ومكافأته لها بشكل متكرر.. والصفعة يا فاطمة؟!.. أسألك عن صفعه المتكرر لمؤخرتك؟.. آه.. حتى هذا يلذ لها، فذاك ما كان

Twitter: @ketab_n

يفعله أبوها أيضاً حين كانت تأتي إليه صغيرة تُريه رسومها أو تحمل شهادات نجاحها في المدرسة، يرفعها إلى ركبتيه، يحتضنها إلى صدره، يُقَبلها، يمنحها بعض الدراهم لتشتري ما تشاء، ثم ينزلها بين ركبتيه ويصفعها بحنان على مؤخرتها قائلاً: أركضي إلى أمك، في المطبخ، وبشريها بنجاحك.

مثلما يحدث كثيراً، مع كثيرين، أن يتحسسا تآلفاً حميماً بعد لقاء أو اثنين، فيشعران وكأنهما يعرفان بعضهما منذ وقت طويل، حدث ذلك بيني وبين فاطمة، وقد أشرنا إليه في حديثنا أثناء مسيرنا القصير باتجاه المرقص. وبالنسبة لي، فهذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بتخفف من عبء الإحساس بالغربة، وكان لاستعمالي العربية بالحديث أثر كبير في ذلك. فاطمة أقرب إلى الأنثى التي أتصور أو التي تربيت على فهمها، ففيها شيء من الأخت والأمومة وتقبُّل الدور الممنوح أو المتاح في الحياة، في المحيط، في الزمان والمكان المعينين وأطر من مفاهيم تقليدية توحي بالوثوق والطمأنينة وقبول الأمر الواقع، ثم حساسية التكيف دون الكف عن هاجس التنظيم والتحسين. استعمالنا في كلامنا، بداهة، الكثير من الكلمات الدينية، يشعرنا بثقة أكبر وتقارب أكثر. فهي حين رأت سجادة صلاتي معلقة خلف باب الصالة، في البقعة الوحيدة الخالية من الصور، قبل أن نخرج، سألت وهي حتماً تعرف الإجابة: أأنتَ تصلي؟. قلت: نعم. فقالت: أنا كذلك قدر استطاعتي، والتزامي كامل فقط في شهر رمضان.. أنا أفَضِّل الأشخاص المؤمنين بوجود الله.

وصلنا، أخرجَت حزمة مفاتيح من حقيبتها، فتحت باب المرقص واندفعنا نازلين إلى داخله بعد أن أضاءت بعض أنواره الخافتة من

Twitter: @ketab_n

زر صغير خلف صفحة الباب. ما إن نزلنا آخر درجة حتى أضاءت فاطمة الصالة بالضغط على زر قرب مدخل الحمّام فاشتعلت المصابيح الكبيرة كاشفة عن فوضى شبيهة بميدان معركة حقيقية منتهية لتوها. الأرضية مغطاة بالمناديل الورقية، أعقاب سجائر، ومخلفات السهرة، كراسي ساقطة، أقداح وقناني فارغة أو إلى منتصفها في كل الزوايا والاتجاهات، أعقاب سجائر، قشور ليمون وعظام حبات الزيتون، أعقاب سجائر، صحون ومنافض مليئة بأعقاب سجائر وعيدان تنظيف الأسنان، علب سجائر فارغة وبقايا سندويشات قُضمت إلى المنتصف، فتيت بطاطا، أعقاب سجائر وعطن النيكوتين يهيمن على المكان.. فقلت ذاهلاً : ما هذه المزبلة!؟.

قالت فاطمة: هذا شيء عادي تخلفه كل سهرة.

ـ وما العمل؟.

ابتسمت وهي تشمر عن ساعديها وتربط صدرية العمل على صدرها قائلة: سأقوم بتنظيفه الآن.

ـ ولكن هذا كثير عليكِ وحدك.. ثم أن كفكِ مجروحة!.

ـ هذه جراح بسيطة.. وسوف ترى كيف أعيد المكان إلى نظافته ونظامه خلال ساعة واحدة.

ـ هل أساعدكِ؟.

ـ لا.. فهذا عملي أنا وأعرف كيف سأنجزه.. اذهب أنت إلى السيد نوح.

ـ كم الساعة الآن؟.

ـ العاشرة والنصف.

Twitter: @ketab_n

وتوجهَت إلى حقيبتها، أخرجَت منها حزمة المفاتيح، مرة أخرى، وراحت تميزها لي عن بعضها.

ـ هـذا مفتاح باب العمارة الخارجـي، هي هنا التي في الزاوية على اليسـار، وهذا مفتاح الشقة، في الطابق الثاني، حرف C يعني التي في المنتصف، بابها مقابل باب المصعد تماماً.

بقيتُ لبرهة.. كأني حائر بين رغبتي بالذهاب واستثمار الفرصـة التـي طالما انتظرتهـا للانفراد بأبـي، وبين ترددي وخشـيتي من هذا الانفـراد.. ربما كانـت رغبتي أن أبقى برفقة فاطمـة أكبر؟.. وجدتها مازالت واقفة تسـتند على المكنسـة وتنظر إليّ كأنها تنتظر انصرافي.. فانصرفت.

Twitter: @ketab_n

- ١٠ -

وقفتُ أمام باب شـقة أبـي ترافقني حيرتي، دقات قلبي تتسـارع ومعها أنفاسي، أحاول التَنصت لما يحدث خلف الباب.. لا شيء غير الصـمت.. فهل أقرع الجرس؟.، هل أنقر على الباب بأصـابعي؟.. هـل أنصرف متهربـاً؟.. أم أفتح البـاب مباشرة وأدخُـل؟.. ربما لهذا الأمر الأخير نفسـه قـد أعطتني فاطمة المفتاح.. لكن كيف سـأدخل بيتاً بلا سـابق تنبيه و لم أفعل أمـراً كهذا منذ مغادرتي لبيتنا القروي؟.. ولكـن هذا هو بيت أبي أيضـاً!؟.. طرقت علـى وجه الباب بأطراف ظاهر أصـابعي طرقاً خفيفاً بالكاد أسـمعه أنا نفسـي.. ربما هو مجرد تبريـر لأقول، فيما لو سُـئِلت، بأننـي طرقت دون أن أكـون كاذباً.. انتظرتُ قليلاً.. ثم أولجت المفتاح، أدرته ببطء، ودفعت صفحة الباب بحذر وهدوء أبطأ.. كمن يفتح صـندوقاً قديماً. دخلت بأقدام صامتة ورددتُ الباب بهدوء شـبيه بالذي فتحته فيه.. لا شيء سوى الصمت الذي يتسيده شخير أبي في ركن ما.

الصـالة ضعف صالة شـقتي اتسـاعاً وفي جدارها المقابل للباب نافـذة تطل على فناء ضـيق بين جدران البنايات المجـاورة. ثمة أربعة أبـواب أخرى داخلية، أحدها مغلق أما الثلاثة المفتوحة فهي: المطبخ، الحمام وشـخير أبي، إنها غرفة النوم حتماً. اقتربـت منها، ورأيته ملقى على السرير على بطنه بملابس سـهرة الأمس وبالجوربين. لم أر أبي أو

Twitter: @ketab_n

أحـداً من قبل في قريتي ينام على بطنه بهذا الشـكل، وأذكر تلك المرة التي نهرني فيها جدي غاضـباً حين رآني منبطحاً على بسـاط مَضافَته بهذا الشكل فصاح: قم، انهض وعدّل وضعك.. وإياك أن تنبطح مرة أخرى على الأرض بهذا الشكل.. فهذه رقدة شيطانية.

ولا أتذكـر مـن ذا الذي فسـر لي الأمر بعدها بالقـول: ذلك لأن الأرضـ هي أمنا ولا يجوز لنا الانبطاح عليها على هذا النحو.. كمن يضاجع زوجته.

عدت بخطواتي البطيئة الحذرة، حد التشنج. جلست على الكنبة التي تتصـدر الصـالة تحت النافذة المطلة على الفناء، ورحت أتفحص المكان في ضوء النهار المتدفق منها. على الطاولة الواطئة أمامي وجوار منفضـة السـجائر وبعض الصـحف الألمانية كانت حزمة مفاتيح أبي ملقاة، عرفتها من خلال الميدالية العتيدة التي تجمعها، سلسـلة قصـيرة تنتهـي برصاصـة مفرغة، صـارت مائلة مـن حمرتها النحاسـية إلى الأصـفر بحكم الملامسـة. هي ذاتها التي ظل يحملهـا معه منذ الأيام الأولى اللاحقة على حادثة اصـطدامنا بمحافظـة تكريت، ظَهَرت مع ظهور تسميتنا بالقشامر.. إنها الرصاصة ذاتها التي بقيت في كف أبي و لم يُدخلها في مؤخرة الصبي الذي تحرش بإستبرق، فقد أنقذته دواب السـوق حينها. ولا أدري.. كيف اسـتطاع أبي تخبئتها والاستمرار معهـا، نفسـها، بعد حملة التعذيـب وبعد مرور الأعـوام.. ثم كيف مررها عبر المطارات إلى هنا؟!.

علـى بقية الجدران بوسـترات لمناظر طبيعية تشـير الكلمات، التي تذيلهـا، إلى أنها مناظـر ألمانية. بوسـترات أخرى كبيرة لفتيات شـبه عاريات بأوضاع إغراء تدعي النشوة..

Twitter: @ketab_n

والشفاه، كالعادة، على تلك الصيغة التي صرتُ أمقتها لتكرارها المبتذل، أي يكون الفم نصف المفتوح، بارتخاء فج على شكل دائرة تَدَّعي الاستعداد للتقبيل.. لا أدري من ذا الذي أدخل في أذهان النساء هذا المشهد الساذج تعبيراً عن الإغراء!.. لقد صرت ألقي بنظري أولاً إلى شفاه النساء في صور الصحف والإعلانات والتقاويم، وما إن أجدها على هذا النحو المستهلَك حتى تسقط أية دلالة للإغراء وأشعر بزيفها بالغ السذاجة، فأقلب الصفحة كنوع من رفض الموافقة على ضمي إلى قطيع المستهلكين المتقبلين للأمر.

شخير أبي مرتفع وفي الجهة المقابلة يرتفع ديكور خشبي يتوسطه التلفاز وتحتشد بقية رفوفه بالكتب وأشرطة الفيديو والموسيقى وآنية أخرى من الخزف والزجاج ودزينات كؤوس موحَّدة.. مشهد تقليدي، هو الآخر، يتكرر في البيوت التقليدية. حيث تقف أيضاً في زوايا الرفوف الصور العائلية، وهنا بالطبع فهي لأبي مع روسا في أكثر من مكان أو مدينة عرفت منها برشلونة على شاطئ البحر وبغداد أمام نصب الحرية. تستند الصور بوقوفها على ظهور الكتب التي تتراصف جميعها، باستثناء القرآن الذي يمنح وجه غلافه، المطرز بكلمة (الكريم) الذهبية، للناظرين في أعلى الرفوف مستنداً على مجلدات تفاسيره.

واصلتُ التفحص على هذا النحو.. نحو نصف ساعة، نهضت خلالها أتجول بخطوات مازالت مقيَّدة، ملقياً بنظرات على دواخل المطبخ، الحمَّام، بعض عناوين الكتب وأشرطة الأفلام، من النافذة إلى الفناء، أيضاً، ومن وسط الصالة إلى غرفة شخير أبي الذي كان ينوع إيقاعاته، بعضها يجفلني، فأحسبه يوشك على الاختناق.

خلال هذا الوقت انتظمت أنفاسي واستعادت دقات قلبي

Twitter: @ketab_n

روتينها، صرت أكثر تآلفاً مع المكان. لذا لم يبق لي إلا أن ابدأ مواجهتي مع أبي. وهكذا اقتربت منه بهدوء. وضعت كفي على أحد كتفيه برفق، فتوقف شخيره، وتوقفت أنا أيضاً قبل أن أردد مناداتي التي لم أمارسها منذ أعوام طويلة.. لذا كنت كمن يغص بها.. كمن يتحسس الكلمات ويستعيد إيقاعها المُنتَزع من مكامن الروح المجهولة، ويشعر بفيزيائيتها حد اللمس المُدِر للدمع الخانق:

ـ أبي.. أبي.. يا أبي.

تململ، وانقلب على ظهره مهمهماً بثقل:ـ هاه.. نعم.

ثم فتح عينيه بصعوبة، ثم دهشة، وقال:ـ أوه.. سليم.

جلس على الفور فاركاً عينيه كطفل كسول ومحاولاً إخفاء وقع المفاجأة عليه بالقول:

ـ صباح الخير.. كم الساعة؟.

ونهض وهو يضيف:ـ إنها فاطمة بالتأكيد.. هي التي بعثتك.

وعقَّب وهو يبحث عن فردتي نعله جوار السرير:ـ إنها طيبة.. وبنت حلال.

خرجنا إلى الصالة، شعره منفوش وبدت الشائبة من ذوائبه تحت المصبوغة. بحث عن شيء ما.. إنه يبحث عن سجائر. هز علبة كانت جوار التلفاز، فتحها، ثم عصرها بقبضته وألقاها على الأرضية:

ـ اللعنة.. إنها فارغة.

قلت:ـ أنا لدي سجائر.

ـ ما هي؟.

Twitter: @ketab_n

أخرجت علبتي من جيبي وأريتـه إياها فقال:ـ لا.. هذه خفيفة.. لا تنفعني.. هل أفطرت؟.

وتوجـه إلى الثلاجة، فتحها وأدخل رأسـه فيها وقال:ـ نحتاج إلى حليب.

ثم عقب مازحاً:ـ لكن الأبقار الآن في المرعى.

وضـحك مرتاً علـى كتفي بدلالـة حميمة. شـعرت عندها بأنه أقـرب إلى أبـي الذي عرفته في الماضـي.. وكأن عبارتـه التي أطلقها بإيحاء واضـح عن الأبقار علامة على المشـترك بيننـا هناك في قريتنا البعيدة.

قلت:ـ سأنزل وأجلب الحليب والسجائر.. أي سجائر تريد؟.

أشار إلى العلبة المفعوصة في الأرضية:ـ هذه.. أو فقط قل للصينين، في المحـل المقابـل للمرقص، تعرفـه؟.. قل لهم أريد سـجائر وحليباً وجبنـاً ألمانياً للسـيد نوح وهم سـيعرفون المطلوب، وأنـا أثناء ذلك سأجهز القهوة وأستحم.. أوكي؟.. هاك خذ فلوس.

ـ لا .. لا داعي، هذا أمر بسيط.

وتجرأت على ملاطفته فأضـفت: وأنت مدعـو من قبلي للإفطار في بيتك.

ضحكنا بمودة تقربنا. وخرجت حاملاً بقايا ابتسامتي حتى مدخل المحل الصـيني. وبالفعل: ما إن أخبرت البائعة الصينية بما طلبه السيد نوح حتى أتتني به على الفور. فعدت أحمله صاعداً إلى المطبخ، فيما كان أبي يترنم بأغنية ألمانية تحت الدش في الحمام. فابتسـمت ورحت أعد الإفطار، مرتباً إياه على طاولة الصـالة بعد أن أزحت عنها كومة

Twitter: @ketab_n

الجرائد ومفرغاً للمنفضة، تاركاً حزمة مفاتيحه المشنوقة بالرصاصة على الحافة، في مكانها.

خرج أبي من الحمام بقامته الهائلة وشعر صدره الذي طغى عليه لون الرماد، لافاً منتصفه بمنشفة بيضاء عريضة وقال حين رأى المائدة جاهزة:- كُل إذا شئت.. سآتي حالاً.

- لا.. أنا أفطرت، هذا لك.. سأتناول معك فنجان قهوة فقط.

ودخل هو إلى غرفة نومه، ليخرُج منها بعد دقائق بملابس أخرى نظيفة أنيقة، وقد مشط شعره رابطاً إياه إلى الخلف على شكل ذيل حصان، وتفوح منه رائحة عطر نفاذة.. أعرف أنه يحب الإكثار من التعطر حد السكب منه على جسده سكباً. عادة قديمة لم يتخل عنها أسوة بجدي الذي كان يردد دائماً بأن النبي كان يحب العطر والنساء والصلاة.

أكل أبي بشهية وشراهة، فيما كنت أنا حائراً بشأن كيفية البدء بالحديث معه.. لذا كان هو، في البداية، أكثر من يوجه الأسئلة خلال مضغه للقماته. سألني عن نفسي، وصحتي، وأحوالي وعملي.. وقال إنه لم يكن يعرف بأني هنا في إسبانيا ولا أحد يعرف، من أهل القرية، عني شيئاً.. لكنه هو شخصياً قد كان في قرارته يشعر بالطمأنينة عليّ وبأنني بخير، في مكان آمن ما. فكان يُطمئن أمي كلما بكت شوقاً إليّ ويخترع لها الحكايات والإشاعات عن نعيم عيش الهاربين خارج العراق. يقوم بتهدئتها وتواصل هي دعاءها لي في صلواتها.

بدأتُ عندها بالدخول في أسئلتي عن أمي، فقال: إنها كما هي؛ امرأة عظيمة تكظم حزنها وتواصل كدحها وهي الآن سعيدة بتربية أحفادها. تعيش معها إستبرق في بيتنا، إستبرق تزوجت من إبراهيم

Twitter: @ketab_n

ابن خالك، وكانت تريد أن تسمي ولدها الأكبر صراط.. لكنه مانع، ومعه حق، وأنت تعرف السبب.. فضحكنا وعرفت لأول مرة بأن أبي يعرف حكاية حب إستبرق لصراط.. وواصل: وهكذا لجأت مثل غيرها من أهلنا إلى القرآن في التسمية. لقد تحسنت صحتها كثيراً، لديها الآن ثلاثة أطفال وتركتها حاملاً بالرابع.. لقد أصبحت أكثر بدانة وليست تلك النحيلة (القصبة) التي عرفتها أنت.. بالمناسبة، هي تُعلق صورة كبيرة لك في صدر حجرتها وترفع إليها أطفالها كل يوم قائلة: هذا خالكم سليم.. سيعود جالباً لكم الكثير من الهدايا. فينطقون باسمك قبل أن ينطقوا اسم والدهم.

انتهى أبي من تناول إفطاره، أراح ظهره على مسند الكنبة جواري وبدأ التدخين بتلذذ، فوجدته أكثر تركيزاً وحيوية واستعداداً للكلام، لذا رحت أجاريه بتدخيني وتصاعد أسئلتي وجرأتها.. سألته عن كل شيء تقريباً باستثناء سؤالين أساسيين فقط لم أجرؤ على البوح بهما: هل هو الذي قتل جدي في فجر تلك الليلة أم أنه قد انفجر بوجهه على تلك الصورة التي رأيتها، قبل مغادرتي، بعد أن تأكد من موته؟.. من أين له هذا الشغف بالنساء.. وكيف يمارس الحب مع روسا بحيث تحبه وتغار عليه إلى هذا الحد.. وهو الذي عطلوا ذكره وخصيتيه في حادثة التعذيب الكهربائي تلك؟.

.. وهكذا كنتُ أدور حول هذين السؤالين كفراشة حائمة حول نار وهي تحاذر الاحتراق.. أدور ضمن الأسئلة التفصيلية الأخرى عن القرية والأهل والحال هناك، فأخبرني بإسهاب وبتحليل أحياناً، لقد طال حديثنا ودخاننا لأكثر من ثلاث ساعات كان أبي خلالها، وحين يشتد به السرد ينهض منفعلاً، يدور في الصالة محركاً ذراعيه، ضاماً

Twitter: @ketab_n

قبضـتيه وصاكاً على عقب السيجارة بين أسنانه أحياناً، فبدا كمن يمثل مشـهداً مسرحياً عصيباً. وأعرف أنني عاجز هنا عن تدوين كل الذي قيل، ووصـف تفاصيل حركاته وسـكناته، فالدهشة، مما قال، كانت تستولي عليّ بالكامل.. لذا سأوجز مما دار بما أخبرني به مبتدئاً من اليوم الذي رحلت فيه أنا عن القرية، وهو اليوم نفسه الذي رحل فيه جدي عن الدنيا. لقد تغير كل شيء يا سليم.. تغير تماماً.

Twitter: @ketab_n

- ١١ -

قال أبي:

دفنَت القرية جثث أبنائها واستسلمت لأوامر الحكومة وضَغْط منظومتها لتتحول بتدرج سريع إلى قرية عادية ككل القرى العراقية الأخرى. وتم الاكتفاء بدفن جدي في رأس أعلى مرتفع في المقبرة، ووضع رايات خضراء على ضريحه وجرار مليئة بالملح يلعق منها المتبركون كلما زاروه. ويقص المرضى شرائطَ من رايات قبره كي يعلقوها في رقابهم أو سواعدهم كأحجية مباركة بعد أن تم الاكتفاء بمكافأة الجد باعتباره رجلاً مباركاً ومن أولياء الله الصالحين. وعاد تجسير العلاقات بقرية الصبح بشكل تقليدي، وكف أهلها عن التغامز بلقب القشامر لا احتراماً وإنما خشية من الحكومة التي فرضت اسم (الفارس) ودست عيونها وآذانها في كل ركن.. على ضفتي النهر وجانبي الجبل، في اليابسة والماء والهواء والطين. أجواء الحرب هيمنت على البلاد بكاملها والتلفاز والمدارس والمنظمات الحزبية والشرطة كانت كلها أدوات الحكومة في التعبئة والسيطرة.. الحديد والنار.. الخوف والكبت والاستسلام بانتظار أمل بعيد بخلاص غامض يكاد ينقطع خيط رجائه.

وقال أيضاً: لقد راح الناس يتحللون تدريجياً من هيمنة ملا مطلق بعد رحيله، ويندرجون مستسلمين تحت هيمنة سلطة الحكومة

Twitter: @ketab_n

الشرسة. انفضّت مجالس دروس الدين في المسجد واجتماعات حل المشاكل الاجتماعية التي نقلوها إلى محاكم المدن. وقل المصلون و لم يعد أحد يتحدث بالثأر للكرامة الذي عاهدوا الملا عليه.. و لم أفعل أنا شيئاً تجاه ذلك.. لكنني بقيت في داخلي متمسكاً بعهدي الذي قطعته على نفسي أمام أبي وأقسمت عليه.. وحدي أنا من كان يواصل عيشه تحت سلطة الحاج مطلق ويحرص على مواصلة طاعتها مهما بلغ الثمن.. لقد كان أبي بالنسبة لي .. يا سليم.. كل شيء.. كل شيء.. إنه القيمة والسُلطة المُطلقة في الحياة الدنيا والآخرة، وقد رأيتَ أنت بنفسك علاقتي به، لقد كان بالنسبة لي بمثابة المقدس، التاريخ، الدِين، القيم، المطلق والحقيقة الوجودية الوحيدة أو مصدرها.. كان بالنسبة لي القوي العارف واليقيني الذي لا يُفترض معصيته.. لقد تربيت على ذلك منذ وعيت.. محفوراً في وجداني وتركيبتي بأن رضا الله من رضا الوالدين.. لذا كان رضاه، عندي، هو غايتي الكبرى.. بل إن أبي قد كان بالنسبة لي هو الخليفة الوحيد لله في الأرض.. وأعترف لك الآن وحدك، ولأول مرة في حياتي.. بأنني كنت غالباً ما أرى الرب مجسداً فيه.. كان ـ هو ـ بمثابة الإله المباشر بالنسبة لي، وتربيته هي التي رسَّخت ذلك.. لم أجرؤ على النظر في عينيه يوماً على الإطلاق..

شيء واحد فقط كان يحول دون قناعتي تلك بألوهيته ويكسرها.. ألا وهو النَدم.. نعم.. لأن الندم صفة بشرية أما الإله فلا يندم على شيء يفعله لأنه السابق واللاحق بمعرفته وعلمه وحكمته وإرادته.. أقول ذلك (الندم) وأعني جدك.. أبي.. فقد أخبرتني أمي ذات ظهيرة في موسم حصاد بعيد، أن الشيء الوحيد الذي فعله أبي وندم عليه وظل يندم على فعله إياه طوال حياته ويبكيه أحياناً في حجرها في لحظات ضعفه.. هو أنه قد قطع لزوجته الأولى عقلة إصبعها السبابة

Twitter: @ketab_n

حين أشـهرته في وجهه مهدِّدَة.. الحادث يعرفـه الجميع ويضربون به الأمثال.. لكن الذي لا يعرفه أحد سوى أمي وأنا وأنت الآن.. هو أن أبي قد ندم على ذلك وظلت ذكرى هذا الحادث تعذبه.. فيما نفعتني أنا بتجريده من صفة الإله.. من هنا أيضاً حرصت على أن أتعامل معكم أنتم أبنائي بشـكل مختلف، شـكاً أو يقيناً في عدم مقدرتي على إتقان التربية القصـوى كأبي، ومحاذراً، في الوقت نفسـه، من فرض صورة الأب الإله عليكم كما حدث معي.. لذا كنت محايداً وبشرياً وصـديقاً كما لاحظت.. كنت أمارس معكم شـطري الآخـر، أناي الأخرى، الحياتيـة العادية والبشرية.. فقد كنتُ وما زلت يا سـليم، منقسـماً إلى اثنـين في داخلي.. واحـد مقتنع مطيع موقن بالمقدس الذي يمثله أبي ومرتبـط بالعمل للآخرة، وآخر مرتاب متمرد شـكاك بشري ومرتبط بالدنيا، يحب الضـحك والنساء والغناء والشـعر والتمرد والخطيئة.. كنت أمارس الأول في القرية بحضور أبي، والآخر هناك في كركوك، في العمل، مع الأجانب والألمان منهم تحديداً. أما معكم فقد حرصت على الحيادية متحاشياً عكس صراع داخلي الشرس عليكم..

جـدك رجل عظيم يا سـليم، لكنه ربمـا وِلِد في غير عصـره، إنني أحبه بشكل كبير.. وأود لو أجد خلاصاً من هيمنته علي إلا بالوفاء له بالحذافير، وفي الوقت نفسه، ثمة نصفي الآخر الذي لابد أنك لاحظته هنا واسـتهجنته فيّ.. إنني أطلقُ له العنان وأسـوق لـه التبريرات.. يا سـليم.. أحرره من سـجنه الذي طال، تاركاً له حريـة الانعتاق حتى يسـتفرغ كل مكبوتـه أو أرى إلى أين يصـل.. ولكن لا تظـن أبداً أن نصفي الأول قد انتهى، أو أنه قد كف عن وظيفته بالمراقبة والتأنيب.. لكننـي كمـن يمنحه إجازة أو اسـتراحة بعد أن مارس وجوده طويلاً وسـيظل يمارسه.. بل إنني أجده أحياناً هو الذي يواصل هيمنته، وهو

Twitter: @ketab_n

ذاته الذي يستخدم الآخر بهذا الشكل لأغراضه.. فهو الذي دفعني للمغامرة المصيرية التي أوصلتني إلى هنا ممتطياً الآخر المقموع ويُسيّره من أجل تنفيذ التزامه، عهده، قَسَمه أمام جدك العظيم بالثأر.. لا أدري إذا ما كنتُ قد عبرت جيداً عن هذا المتشابك في نفسي.. أو أنني قد أرضيتك بإجابتي وتفسيري هذا، أم أنني قد خيبت أملك.. ولا أدري فيما إذا كنت أباً صالحاً لك، أو الذي تريد.. فأبي الذي شغلني حتى عن إرضاء نفسي هو ذاته الذي شغلني عن التفكير بإرضاء غيري.. حسناً سأحاول الآن أن أرسم لك الأمر وفق حركته على الواقع عبر الحكاية التي أوصلتني إلى هنا.. أو بالأحرى حكاية وصولي إلى هنا.

بعد غياب (لم يقل: موته أو مقتله) جدك كنتُ في أشد حالات صراعي مع نفسي، ووحدها أمك التي كانت تدرك هذا الألم.. لكنها وكما تعرف ظلت هي كما هي عظيمة تمارس أمومتها على الجميع.. كنتُ أذهب إلى قبر أبي، أبكيه هناك، أتلو له القرآن كي أطمئنه على أنني مازلت أحفظه كاملاً كما أراد، أناجيه أتحدث معه، أسأله وأشعر بأنه يجيبني، وأؤكد له عهدي معه والتزامي بما يريد مني، وخاصة قسمي على تنفيذ الثأر.. وهل تُصَدق بأنني لم أجرؤ أيضاً على النظر إلى شاهدة الرأس وإنما كنت أمسحها بكفي وأقبل الكف.. وحين أغادره كنت أسمع صوته يناديني: اسمع يا نوح. يردد قولته الشهيرة، ويردد الجبل صداها: إذا نبح عليك الكلب فلا تنبح عليه ولكن إذا عضك فعضه.. فعضّه.. عضّه.. عضّه.. ضّه.. ضّه.. هـ.. هـ.. هههههه..

تأخرتُ عن عملي في كركوك لأكثر من شهرين، ثم ذهبت بِنيّة تقديم استقالتي فوجدتهم قد فصلوني لطول غيابي وعيّنوا غيري..

Twitter: @ketab_n

منحوني ما تبقى لي من مال مستحَق وعوضوني بمبلغ جيد. فذهبت إلى صديقي الكردي كاكه آزاد، وهو صاحب ثروة كبيرة وحزن أكبر، تعززت علاقتي به طوال أعوام عملي هناك، حيث كنت أذهب إلى مطعمه وأستودعه أغراضي وأسراري، وكان كثيراً ما يصطحبني إلى بيته الذي يعيش فيه وحيداً ونسهر هناك أو أبيت عنده، ويوصلني إلى العمل بسيارته صباحاً.. ولآزاد حكايته الطويلة المُرّة أيضاً، موجزها: أن الحكومة قد قتلت عائلته ودمرت قريته التي وجدها حطاماً.. خراباً حين عاد من إحدى رحلات التهريب التي كان يقوم بها إلى إيران وتركيا. يهرب البضائع والأشخاص.. فأقسَم هو الآخر على أن ينتقم. غيّر بطاقته واستقر في كركوك بعد أن فتح هناك مطعماً فخماً، يستطلع منه الأمور ويتقرب إلى رجال السلطة، يستدرجهم ويستدر المعلومات منهم وعنهم لنفسه، كما يوصلها إلى المتمردين في الجبال ويدبر مؤامراته.. كنت أحدثه عن كل شيء وتعززت صداقتنا حد المؤاخاة.. فتعاهدنا ذات فجر في محراب مسجد على الأخوّة بالقسم على القرآن، ومنح كل منا شعرة من شاربه لأخيه.. ولا أنكر أنني قد كنت في ذلك أقلد أبي أيضاً باتخاذه للشيخ عبدالشافي الكردي أخاً له.. تتذكره؟.. الذي ذهبنا إلى بيته لعلاج إستبرق.

لقد علمني أخي آزاد الكثير.. وإذا كان جدك قد زق في دمي قيم الكرامة والرجولة وأخلاقيات بعينها، فإن آزاد قد صبها في عظامي كالأسمنت صباً، وعلمني حرفية ممارستها بقلب ثابت.. علمني صلابة العناد، وكان يهدي كل عملية يقوم بها إلى روح أحد أفراد عائلته، وعند الانتهاء يعاود بالتسلسل إهداءهم عمليات أخرى.. وهكذا. تعلمتُ منه أيضاً، لبس الأقنعة وممارسة الأدوار المتباينة وتجسيد الشخصيات المختلفة حد التطابق.. وحين أخبرته بعهدي

Twitter: @ketab_n

مع أبي وقسَـمي على أن أُدخل هذه الرصاصـة المتبقيـة ـ أخذ ميدالية مفاتيحـه وهـز الرصاصـة في قبضـته ـ في مؤخرة ذلـك الوقح الذي تسبب بكل ما حدث. ربت آزاد على ركبتي وقال: أحسدك.. لأنك تعرف وجه عدوك، وأمرك أسـهل.. فلسـتَ مثلـي أنا الذي أحارب عدواً هائلاً، أخطبوطياً، لا وجه له.. رجال السلطة والحزب والجيش وأعوانهم.. اطمئن فسـوف تبر بقسـمك وسـوف تثأر أيضـاً لابنك المقتـول في حربهم ولبقية أبناء قريتك واحداً واحداً. تمنيت لحظتها لو أن أبي كان يسمعنا.. فبكيت وتعانقنا.

إثرها قررنا الانتقال إلى بغداد. باع هو مطعمه في كركوك وفتحنا معاً مطعماً فخماً بين شارعي السعدون وأبي نوّاس. عندها قلت لأمك بأنني راحل لأبر بقسمي وتواهبنا؛ قلت لها: أنا راض عنكِ. وقالت: إنني راضـية عنكَ. فهي تعرف ما يعنيه القَسـم على القرآن، وتعرف جيـداً ما يعنيه لي أبي، الـذي يعني لها القيمة والقمـة ذاتها. قلت لها إنني لا أدري كم سأغيب ولا أعرف أين سأكون ولا إلى أين سأتجه ولا أدري فيما إذا كنت خلال غيبتي سـأعاشر أو أتزوج نساء أخريات، أو أنني سأموت. فإذا أرادت أن أطلقها سأفعل أو فلتسامحني عما قد أفعله أو أضطر لفعله أو ما سيحدث معي.. بكت، بالطبع، وقالت: افعل ما تشاء.. ولا أريد الطلاق منك.. فكونك زوجي ووالد أولادي هو أمر يشرفني. أنت تاج رأسـي وأريدك في الآخرة زوجاً أيضـاً. ظلت قوية القناعة وتفهمتني.. بل منحتني بتشـجيعاتها القوة والعزم واعدة إياي علـى أن تحل محلي في إدارة البيت والعائلة والدعاء لي في صـلواتها.. مقابل ذلك رجتني ألا أدَّخر وسعاً بالسؤال والبحث عنك، فوعدتها.. وتوادعنـا. قدمَت لي ذهبها، فقلت لهـا لدي الوفير من المال ومنحتها منـه شـيئاً ثم غادرت، مثلـك، ذات فجر بعيد و لم أعاود اتصـالي بها

Twitter: @ketab_n

حتى هذه اللحظة.. بل ودون أن أهتم بوعدي لها بالسؤال والبحث عنك.. فلم يكن ذلك ليشغلني.

في بغداد صار مطعمنا مفضلاً للكثيرين من المسؤولين والمتنفذين والأغنياء، كنا نغريهم بتعاملنا وكرمنا وتزلفنا فنكسب صحبتهم وتيسير فسقهم، فعرفنا عنهم الكثير، وفي الوقت نفسه، كِلنا لهم العديد من الطعنات المُحكمة التدبير. جمعنا المزيد من المعلومات الدقيقة عنهم وأوصلها آزاد إلى المتمردين والمعارضين. وعرفنا أن ذلك الصبي الذي أبحث عنه قد تم تعينيه ملحقاً ما في السفارة العراقية في إسبانيا. وهكذا رحنا نبحث عن سبيل يوصلني إليه.. إلى أن حدث وأن جاء مسؤولون من وزارة الإعلام بوفد سياحي إسباني للعشاء في مطعمنا، فتعرفتُ على روسا.. وهكذا تم الباقي.. لحظة.. يا سليم.. لا تفكر بأنني قد استخدمت روسا وخدعتها، وإن كنتُ في حقيقتي.. لم أكن لأتردد في فعل ذلك. فقد ارتكبتُ برفقة أخي آزاد ما هو أدهى.. لكن الذي حدث هو التوافق بين غايتي وبين عاطفتي، فقد أحببتها فعلاً وهي قد أحبتني.. وهي المرأة الوحيدة التي أحببتها واخترتها بنفسي لنفسي. فكما تعلم أن أمك قد اختارها لي جدك وكان لقائي الأول بها في ليلة عرسنا.. ومحبتي لأمك قوية ولكنها ليست الحب المعروف بين امرأة ورجل.. كيف أشرح لك؟.. يعني كنا زوجين ناجحين جداً لكننا لم نكن حبيبين عاشقين.. أما روسا فقد عشقتها واخترتها بمحض إرادتي أنا. وثمة أشياء كثيرة تجمعنا.. وهكذا هي التي قامت بكل إجراءات وصولي إلى هنا، تحدثَت مع السفارة والوزارة الإسبانيتين، ووقّعت على الوثائق والضمانات المطلوبة، ودفعت أجور كل ذلك بما فيها الرحلة إلى هنا.

Twitter: @ketab_n

أقمنا في بادئ الأمر في برشلونة ثم أقنعتها بالمجيء إلى مدريد وإقامة هذا المشروع المشترك.. لكنها لا تعرف شيئاً عن نيتي الأخرى، التي قطعتُ في الوصول إليها شوطاً كبيراً، فقد جمعت المعلومات الوافية والدقيقة عن مواعيد الدخول والخروج والبيت والأماكن المفضلة لهذا الحيوان. وكسبت ثقة شابين قويين محترفين من عصابة كولمبية كي يعينوني. أصبحا مهيئين لمفاتحتهما في أي وقت أشاء، وهكذا فقد أصبحَت مهمة تنفيذ غايتي والبر بقَسمي لا تتعدى كونها مسألة وقت قليل، واختيار للمكان وللّحظة المناسبين..هـا.. ما رأيك؟.

Twitter: @ketab_n

- ١٢ -

بالتأكيد لم يكن لي رأي في تلك اللحظة وأنا واقع تحت سطوة المفاجأة، وأبي الذي لاحظ دهشتي بوضوح، لم يصر على سماع رأي فوري، لذا فهو لم يمانع حين دعوته للخروج وغيرت الموضوع متظاهراً بأولوية التفكير بحل لَحَرد روسا، فقال: اسبقني أنت إلى المرقص، انتظرني هناك، فيما سأتصل أنا بها الآن ونرى.

وجدت الباب الخارجي للمرقص مفتوحاً إلى منتصفه. طللتُ برأسي وناديت فاطمة فجاءني صوتها أن: ادخل. فدخلت دون أن أغير من وضع الباب. وما إن نزلت ورأيت حتى أخذتني دهشة أخرى، من نوع آخر، خفَّفَت من مرارة الدهشة السابقة مع أبي. لقد وجدت المكان نظيفاً ومرتباً كأن فريقاً متخصصاً قد انتهى لتوه من تركيب الديكور، وبالفعل كانت فاطمة قد انتهت لتوها من ترتيب كل شيء حيث وجدتها تضع اللمسة الأخيرة وهي ترش مُعطر الجو حائمة تبُخ أريجه بين الأركان مبتسمة وتسأل: ها.. ما رأيك؟.

ولها، بالطبع، أستطيع إعطاء الرأي فوراً: مُدهش.. كيف فعلتِ كل ذلك؟.. أنتِ بطَلة!.

فندت ابتسامتها عن ضحكة راضية وهي تدخل خلف دكة البار وتسألني فيما لو كنت أرغب بتناول شيء، قلت لها:ـ لا، فأنا بانتظار نزول أبي.

Twitter: @ketab_n

ـ كيف وجدته؟.

قلت (جيداً) وأنا أسارع لتغيير مسار الحديث إلى أي شيء آخر. فسألتها: كيف صارت يدكِ؟.

ـ إنها تمام.. قلتُ لك، إنها مجرد جراح بسيطة.. ليت كل جراحنا كهذه.

ثم رحت أسألها فيما إذا كانت ستذهب إلى بيتها؟ هل ستعمل اليوم؟.. وحديث عادي على هذا النحو قطَعه، بعد قليل، صوت إزاحة الباب ودخول أبي بحيوية وابتهاج مناديـاً باحتفالية وفاتحاً ذراعيه كممثل مسرحي.

ـ هاي.. فطومة.. فافي.. صباح الخير يا حُبي.

ـ أهلاً يا سيد نوح.. صباح النور.. كيف حالك أنت؟.

ـ أنا بخير كالحصان كما ترينني، سنذهب أنا وسليم لتناول الغداء فهل تحبين أن تأتي معنا؟.

ـ لا.. شكراً، عليّ أن أذهب إلى البيت، فأنا أحتاج إلى مزيد من النوم وهذه الليلة أمامنا عمل كثير أيضاً.

ـ اسمعي.. إذا شئت ألا تأتين فبإمكانك ذلك، فقط أخبريني بالهاتف لأتدبر الأمر، على الرغم من أنني بحاجة لوجودك الليلة أكثر، ولكنكِ قد بذلتِ في الأمس واليوم جهداً كبيراً. تستحقين عليه المزيد من الاستراحة.

ـ لا تهتم يا سيد نوح.. سأجيء بالتأكيد.

ـ حسناً.. إذاً سأمنحكِ، كمكافأة، يوم الأربعاء أيضاً استراحة إضافة إلى يومي الاثنين والثلاثاء المعتادين.

Twitter: @ketab_n

وربت أبي على كتفي قائلاً:- إذاً.. هيا بنا يا سليم.. وأنتِ اذهبي الآن يا فاطمة.. نراكِ هذه الليلة، وبإمكانكِ الوصول متأخرة، إذا شئتِ، أي بعد الثانية عشرة عندما تبدأ السهرة.. إلى اللقاء.

خرجنا، فقادني إلى محل الصينيين ليشتري علبة دخان أخرى. هناك دخل باحتفالية أيضاً، وتمازح مع المرأة البائعة مردداً بضع كلمات بالصينية فهمت أنها التحية وكلمتين أخريين ربما بذيئتين لأن المرأة ضحكت وهي تردد رادة عليه بالإسبانية:- لا.. لا.. أنتَ.. أنتَ.

خرجنا بعدها وقادني من شارع ضيق إلى آخر، من زقاق إلى آخر، وصولاً إلى مطعم إسباني تقليدي تشهد واجهته على قدمه، تفوح منه رائحة الأخشاب العتيقة حال الدخول إليه.. وبينما كان هادئاً خلال مسيرنا، ممتدحاً لطف الجو، مثنياً على فاطمة وطيبة الصينيين بعبارات عادية ليست أكثر من محاولة لإشغال الصمت، وملقياً بقطع نقدية عند رأس متسكع نائم في إحدى الزوايا قائلاً: مسكين مريض بالإيدز. وجدته يعاود ممارسة احتفاليته حال الدخول إلى المطعم صائحاً بالنادل هناك ومنادياً إياه باسمه (خوسيه) الذي راح وصاحب آخر له يردان باحتفالية حميمة موازية. ثم أشار لي بالجلوس على طاولة في أقصى زوايا صالة المطعم، مجاورة لنافذة تطل على الزقاق، فيما توقف هو معهم شارحاً لهم طلبات الغداء بمفردات إسبانية مرتبكة اللفظ والترابط مستعيناً بالتأشير بأصابعه على قائمة الطعام أو على نماذج من الأطعمة المعروضة ذاتها.

وهناك، في الزاوية المضاءة بنور النافذة النهاري، حيث كانت الساعة المواجهة تشير إلى قرب الرابعة عصراً. تناولنا غداءنا، وشرابنا، ودخاننا وأحاديثنا على مهل وروية. عاودنا استكمال تفاصيل ما

Twitter: @ketab_n

تناولناه في حديثنا السابق وترميم العديد من المشاهد.. وأعرب عن رغبته الجامحة بالاتصال بآزاد لإخباره بأنه قد وجدني، قال:ـ هذا سيفرحه جداً. ثم عقّب: لكنني لا أستطيع فعل ذلك.. لأننا قد اتفقنا على ألا أتصل به أبداً إلا بعد أن أنفذ غايتي، وعندها سأتصل به دون أن أشير؛ لا من بعيد ولا من قريب إلى ما فعلته.. فمجرد الاتصال بحد ذاته سيعني أنني قد نفذت المهمة.. وعندها نتحدث عن الأمور العادية الأخرى والأحوال والسلامات.. هل تعلم.. لقد اتفقنا أيضاً على أن نذهب للحج معاً حال الخلاص من نظام الطاغية وعندها نتطهر من ذنوبنا ونتوب إلى الله ونحاول الاستقامة.. لقد حاولتُ إقناع أخي آزاد لأكثر من مرة أن يتزوج ويبني عائلة جديدة، وهو متمكن من ذلك صحياً ومادياً، ولكنه ظل يرفض قائلاً بأنه قد قطع العهد على نفسه بأن لا يتزوج ولا ينجب إلا بعد نهاية الطاغية، فهو لا يريد أن يجلب أبناءً آخرين سيعانون القهر بوجود الدكتاتور أو برؤية خلقته.

عندها أخبرت أبي بما اسمعه وأقرأه من الأخبار عن نية الولايات المتحدة الأمريكية بتأليف تحالف ومهاجمة العراق إذا لم يسمح بالتفتيش ونزع أسلحة الدمار الشامل. فقال: أية أسلحة دمار شامل!.. وهل هناك ما هو أكثر دماراً من الدكتاتور نفسه الذي قتل وشرد ملايين، فلماذا لا ينتزعونه ويخلصوننا!؟. تجادلنا بعدها سياسياً، أنا أرفض مهاجمة العراق تحت أية ذريعة وهو يقول أن الخلاص من الدكتاتور أمر يستحق دفع أبهظ الأثمان. قلت له ـ متعمداً ـ أن ألمانيا، مثلاً، ترفض المشاركة في تحالف كهذا، ففاجأني جوابه بأن: طبعاً.. الألمان شعب عظيم، متحضر يحترم القوانين، وأمر قذر كالدكتاتور يحتاج إلى ند مثله كرئيس أمريكا مثلاً.. هم وضعوه وهم جديرون

Twitter: @ketab_n

بخلعه. بعدها سنعرف كيف نواجههم، لأن التصدي للص غريب أهون من التصدي للص البيت.

لم يكشف لي الحوار السياسي وجهاً آخر لأبي فحسب، وإنما وجهاً لطبيعة مرارة الحال هناك في العراق ونفاد الاصطبار على أمل الخلاص.. الحديث حتى هذه النقطة قد كشف لي عن تمسك أبي بشخصيته الأخرى، الثأر، والعودة إلى الالتزام الديني.. وهنا سعيت لاستحضار الجانب الآخر منه كي أرى حضورهما معاً، أو على الأقل لأتمكن من تحسس مدى قوة أحدهما قياساً إلى الآخر.. فسألته إذا كان قد تكلم مع روسا في الهاتف، وبماذا أجابته؟.. هبط حماس صوته قليلاً وأشعل سيجارة أخرى ثم قال إنها غاضبة منه كثيراً، و لم يستطع أن يفهم منها غير الرفض، لأنه لم يستطع أن يسمع كل كلماتها، لأنها كانت تنتحب وتنشج باكية في الهاتف وتشتمه.. ثم علق ممعناً في تذوق الكلمات التي ينطق بها: تبدو وكأنها ثور جريح، من وجهة تعبير إسبانية، .. أو وكأنها لبوة جريحة، من وجهة تعبير عراقية،.. وهي كذلك.. إنني أفهمها.. وأعذرها. ثم صمت للحظات وراح يحدق من النافذة. فسألته عما يفكر بفعله.. تنهد وعدل من جلسته واضعاً كفيه على الطاولة ثم ناقلاً نظراته للتفرس في وجهي بجدية ومباشرة وقال: لستُ راغباً بأخذك من حياتك الخاصة وجرك إلى شؤوني.. لكنني بحاجة إليك.. إلى مساعدتك.. فهل تستطيع؟.

أوقفت أنا الآخر انثيال استرخائي وانتصبت في جلستي يقظاً ومتسائلاً.. فأضاف: روسا غاضبة مني جداً.. ومعها حق في ذلك.. إنني أفهمها.. لكنني متأكد أيضاً من حبها لي، والمرأة العاشقة هي دائماً على استعداد للعفو.. بل إنها تنتظره وتريده.. إلا أنها تنتظر،

Twitter: @ketab_n

في الوقت نفسه، طريقة مبتكرة أو خاصة بالاعتذار منها؛ تُشعرها بثمن استحقاق عفوها.. من ذلك طبعاً الهدايا والورد والكلمات الخاصة، لكن كلما كانت المشكلة مختلفة فيُفترض البحث عن طريقة مختلفة تناسبها بالاعتذار، وعليه فأنا أفكر أن تذهب إليها أنت.. نعم أنت.. وغداً إلى بيتها في برشلونة، سأعطيك عنوانها ورقم هاتفها ونوع الورد الذي تشتريه ومن أين والكلمات والوقت المناسب.. وهكذا سيكون الأمر لها مفاجأة كبيرة.. فهي تعرف مدى أهمية أبنائي بالنسبة لي، وأنتَ تحديداً، وسيكون هذا أيضاً بمثابة اعتراف مني بحبي لها أمام عائلتي وهذا أمر يهم كل امرأة.. المرأة تشعر بثقة أكبر كلما وجدت حبيبها يقدمها ويعترف بها أمام الأشخاص الذين تعرف بأنهم يهمونه.. كذلك سيكون الأمر فرصة جيدة لتتعارفا بشكل أفضل.. (لحظتها أيضاً فكرت في أن أسأله عن كيفيه علاقته بالنساء بعد ما حدث له في التعذيب الكهربائي.. لكنني لم أجرؤ..).

لأبي نبرته وسلاسته الخاصتان في طرح حكمته، وفي أسلوبه بالإقناع.. وهذا الطرح، بقدر ما فاجأني، بقدر ما أعجبني جانب الذكاء فيه، وانتابني لذلك شعور ما، بالرضا لأنه يستعيد تقاربنا بشكل أكبر.. أو ربما لشعوري بأنه بحاجة إلي.. لذا لم أكن رافضاً، بل أغراني الأمر، فأخبرته بأنني ملتزم بالعمل ولن يكون من السهل الذهاب إلى برشلونة وحل الإشكال والعودة في اليوم نفسه ثم الذهاب إلى عملي مباشرة.. لذا لا بد من التفكير بطريقة ننظم بها جدولاً مناسباً.. أو أن يمهلني لأطلب إجازة قصيرة لبضعة أيام من عملي..

وهنا جاءت مفاجأة أبي الأخرى، والتي عبر عنها بيقين ورغبة أكبر من السابقتين، وهو يقول: ما رأيك في أن تترك عملك وتأتي للعمل

Twitter: @ketab_n

معنا في المرقص.. نحن.. أنا بحاجة إلى وجودك.. وسندفع لك مرتباً أفضل، وتكون حراً في اختيار أوقات عملك.. تكون أنت سيداً من أصحاب العمل لا من مستخدَميه؟..

فتبسمتُ.. وربما شهقتُ كمن يُبخّ وجهه برذاذ ماء بارد، ثم استطردتُ، لا رافضاً.. أيضا، وإنما استطراداً مشابهاً لسابقه، فقلت: لكنني لا أفهم في عملكم شيئاً ولا خبرة لي فيه من أي نوع!..

ألقى بظهره على المسند نافضاً رماد سيجارته عن بُعد، ونافضاً كفه الأخرى استخفافاً تهوينياً:- لاه.. هذه أمور بسيطة، وهذا عمل لا يحتاج إلى خبرة واحتراف.. يمكنك أن تتكفل بصندوق الحسابات مثلاً، أو بطلب الحاجات والتفاوض حول أسعارها ونقلها.. يعني أشياء إدارية عامة، بل إن أمور العمل الأخرى يمكن لفاطمة أن تعلمك إياها في سهرة واحدة.. هذه أمور بسيطة.. بسيطة يا سليم.. ها.. ما رأيك؟.

Twitter: @ketab_n

- ١٣ -

رأيتُ بريقاً يتراقص في عينيه ورغبة مكبوتة بالقفز والصراخ جذلاً عندما وجد مني الاستجابة الموافِقة. مد كفه إلى جيبه وقال: اذهب إلى برشلونة بالطائرة هي أسرع وأكثر راحة.

لكنني ممن يفضلون السفر بالقطارات، شيء أشعر معه بامتلاك فرصة طويلة من التأمل الذي أستدرّه على إيقاع سير القطار وهو يمرق بين وجوه الجغرافيا المتنوعة.. وكم يطيب لي أن أجلس فيه قرب نافذة أطل منها على حركة الأرض، أشجار، أنهار، تلال، قرى، مدن، حيوانات، جبال، سهول، حقول، غيوم.. استعراض طويل لأرض عريضة وسماء فسيحة. عندها يسرح ذهني بالمراجعة والتذكر والتحليل والتخطيط والأحلام. صمت متواصل وتأمل متواصل.. تأمل يتم تناوبه بين الخارج والداخل.. إذا لم أتأمل الخارج أتأمل الداخل أو العكس.. حيث تكون عيناي محدقتين في أحدهما ـ الخارج أو الداخل ـ فيما عين الوعي تنبش في الآخر.. أو ينقلني أحدهما إلى الآخر عبر قنوات خفية منها الاستبصار مثلاً.. كما أن للأمر سمة رومانسية ربما انطبعت في ذهني من مشاهداتي للأفلام القديمة التي تكتظ بلقاءات وتوديعات وانتظارات العشاق في محطات القطارات أو شرودهم ـ مثلي الآن ـ للتذكر والتأمل، وهم أيضاً، عادة ما يختار لهم المُخرِج المقاعد المجاورة للنوافذ..

Twitter: @ketab_n

وهكـذا فأنا لم أقـرأ من الكتاب الذي حملته معي أكثر من سـبع صـفحات، ذلك أنني رحت أشرد في استعادة ليلة الأمس، ليلة عملي الأولى في مرقصـ القشـامر، حيث أبي يرقص ببهجـة أعرف تماماً أن لوجـودي معه وموافقاتي على ما أراده دور كبير فيها. فبعد أداء فقرته الكوميدية الافتتاحية، قام بدور روسا في الإشراف العام دون أن يهمل دوره الدعائـي بالتنقل بين الزبائن. وعلى الرغم من أنه ظل يحمل في يده كأسـه، إلا أنه لم يرتشـف أكثر من قدحين من البيرة طوال السهرة التي تعمد أيضـاً ألا تتأخر حتى الفجر كما في نهايات أسابيع أخرى، فقد اسـتطاع وبتهذيب وذكاء مـا، أن ينهيها في الثالثة بعد منتصـف الليـل.. ربما كان يفكر بتعب فاطمة وبتعبي في يومي الأول وسـفري في اليوم اللاحق. لكنه بالتأكيد لم يكن على بينة من نشوتنا أنا وفاطمة حيث التقارب التدريجي والاحتكاكات.

أستعيد من ليلة الأمس مشاعر انهيار الحواجز بيني وبين فاطمة التي كانت تعلمني كيفية إدارة الحسابات والاستجابة لطلبات الزبائن، كما تدلني على أنواع المشروبات وكيفية تحضـيرها وتقديمها.. كانت تقوم بالأمـر مزدوجـاً في آن واحد.. أي القيام بعملهـا وتعليمي، تؤديهما معاً.. فكنا معاً طوال السـهر/ العمل. خلف دكة البار. كانت تتحرك كأنهـا نحلة تطير بين أزهار متجاورة، دون أن تنسـى شـيئاً ودون أن تنسى ابتسامتها. في أثناء ذلك، ولضيق المكان، كثيراً ما تصادم أحدنا بالآخر واحتك به. كنا نشـعر في دواخلنا بهذه الملامسات ونهتز حد القشـعريرة العذبة وإن أظهرنـا حياديتها/حياديتنـا واعتذرنا بروتينية لبعضـنا في بادئ الأمر، لكننا بعد أن تكررت رحنا نكتفي بالتبسم.. هذا إذا لم نكن نتعمدها أحياناً.

Twitter: @ketab_n

من بين كل تلك التصادمات لا أستطيع إيقاف استعادة ذراعي محتكاً بأحد نهديها، ولا تمسُّح فخذي بردفيها عندما مررتُ من خلفها لأتناول شيئاً من إحدى العاملات في الصالة فيما كانت هي منحنية لإخراج المزيد من المزة/من علب الزيتون المركونة على الأرضية أسفل أوطأ الرفوف. فخذي مر على ردفيها.. صورة أستعيدها منذ الأمس كثيراً، والآن على البطيء كما في التقنيات السينمائية، على مهل، على البطيء كأني أدقق متعمقاً.. لكنني في الحقيقة ألتذ. فخذي يتمسح بردفها الأول يجده لدناً طرياً متيناً كروياً معاً كبالون طفل ممتلئ بأنفاس أمه، ثم يواصل فخذي زحفه لينحدر في المنخفض بين الردفين في الوادي بين تلتين يمر القطار الآن وتسري الرعشة من فخذي إلى بدني، مروراً يصعد بعدها الردف الثاني وهو يواصل احتكاكه الحميمي وحتماً أنه قد فتحهما قليلاً.. هذا ما أتصوره وأرتعش.

لم يكن العمل صعباً كما تصورته.. بل على العكس، وجدت بأنه يعجبني، وخاصة ما يتيحه لي من تواصل دائم مع آخرين وتعامل مباشر معهم.. أمر كنت أعاني من فقدانه في عملي السابق كوني مجرد سائق لا تتجاوز العلاقات فيه أصحابي بالعمل كأنطونيو وماريو وصاحبته كارمن وصاحب وكالة التوزيع.. لذا كانت العزلة والوحدة طابعاً سائداً على حياتي.. أما هذا العمل فهو مختلف تماماً، لأنه يتيح التعامل مع مختلف النماذج.. بل ويجبرك على إيجاد صيغ للتفاهم معها وفهمها، لأن القصد هو كسبها كزبائن.. أمر له إيجابياته أيضاً في أن ساعات العمل تنقضي ممتلئة بالحيوية والحياة وسريعة غير مملة.. لا شعور معها بالتعب أو الملل أثناءها، لكن فيما بعد، عند انتهائه حين تقرر أن تستريح ستشعر بالتعب وأوجاع في ساقيك لطول الوقوف.. لكنك ستستريح.

Twitter: @ketab_n

لا أستطيع الزعم بأن هذا الذي أشعر به تجاه فاطمة هو حب لا أستطيع مقاومته أو تفاديه.. لكن ربما أستطيع توصيفه بحالة معروفة، وهي أن يوكل الأمر فيها لسيادة العقل أكثر من القلب.. ثمة طرف آخر تعتقد بأنه يناسبك وبأنه يصلح لأن تقيم معه علاقة حب تدرك تماماً بأنك ستحبه، حقيقة، لاحقاً بالمعاشرة. وبعد أن تتعرف عليه تعرف، مسبقاً، بأنه يصلح لإقامة علاقة قد تقود إلى أن تصبحا في خاتمتها شريكين في الحياة، زوجين.. إذاً فالأمر لا يتعلق بالنظرة الأولى المهيمنة، ولا بمشاعر انشداد وجذب غامضة تخرج عن نطاق سيطرة الإرادة، أو تستحيل مقاومتها.. وإنما هو نوع من القناعة والاختيار.. بل وفيه يسري منحى القصدية الواعية المدبرة. هذا بالنسبة لي فالذي أشعر به تجاه فاطمة.. أو لأقل؛ الذي أفكر به، لأنه أصح من القول (أشعر به).. أنه يختلف تماماً عن هوسي وعشقي الراعف لعالية التي هي عشقي الأول وربما الوحيد والأخير.. كانت عيناها الصغيرتان ثقبين سحريين بالنسبة لي تستحيل علي مقاومتهما فمنهما وبهما أرى متعة حياتي ومعناها. فيما لفاطمة عينان واسعتان ورمشان طويلان سوداوان بشكل أعرف أنه الفتان وفق الذائقة التقليدية العامة.. وهما كذلك فعلاً: عينان فاتنتان.. لكنهما لا يفعلان بي ما فعلتاه عينا عالية.

إذاً ففاطمة يمكنني التفاهم معها، وثمة مودّة، وثمة اشتهاء.. إنها صالحة ومناسبة ومستعدة للشروع بعلاقة حب.. إنها قابلة للحب.. ونظراتها، طريقة تعاملها معي، نبرات صوتها عندما تحدثني، ردود أفعالها، تودداها وابتسامتها الدائمة.. كل ذلك يؤكد بأنها هي الأخرى تبادلني الرضا والموافقة ذاتهما.. بل إنه يشكل بمجمله صيغةً من النداء يدعوك للخطوة القادمة المعروفة.. ثمة نوع من الشعور، لا بد أن الجميع قد مر به أو عرفه، وهو الشعور بأن الآخر المقابل يبادلك

Twitter: @ketab_n

القناعة ذاتها والاستعداد ذاته، وأنه ثمة وجه من التفاهم والفهم الصامت، وأن الآخر بانتظار لحظة الشروع ببناء العلاقة.. بل ولدي هاجس إضافي يوحي لي بأن أبي ومن خلال ما كان يشير به لأحدنا عن الآخر ومازحته لأحدنا أمام الآخر.. كان يدرك هذا الأمر.. هذا إذا لم يكن قد خطط له في داخله.. ويريده.

على مدى الساعات السبع إلى برشلونة، كان لفاطمة وذكريات تفاصيل ليلة الأمس، الحصة الأكبر من الاستعادة، وبأقل منها بكثير تداخلات ذكرياتي عن عالية التي كانت عادة ما تهيمن علي كلما مر القطار جوار ماء.. نهر أو بحيرة أو بحر. فيما كنت أطرد فكرة واحدة من رأسي كلما تقدمت إلى طابور تأملاتي.. ألا وهي قرار أبي بتنفيذ قَسمه الذي غامر من أجله وأوصله كهدف إلى هنا، أي إدخال الرصاصة المتبقية من مسدس ذلك الصبي في مؤخرة الدبلوماسي في السفارة العراقية، أي تلك المؤخرة ذاتها. كنت أشعر بالضيق وعسر هضم هذه الفكرة.. بل وغرائبيتها، على الأقل، بعد أن تركَت تجربة أعوام العِشرة في الغرب آثارها عليّ بحيث تجعلني أرى في أمر كهذا تهوراً وقسوة لا إنسانية.. وبأنه سلوك مرَضي نتائجه وخيمة. فكيف لي أن أثني أبي عنها وهي هدفه وقَسمه على المصحف أمام جدي؟؟..

لا أستطيع التفكير في الأمر بشكل سليم، ولا أجد لدي صيغة واضحة للتعامل معه بحكم كونه جوهرياً في حياة أبي وتفكيره وعزمه. لذا أكتفي بتذكر بعض التفاصيل مما أوصاني به أبي بما يتعلق بمهمتي هذه إلى روسا. لقد تحدث كثيراً لكنني اكتفيت بالأساسي منها، وهي أن أشتري لها باقة من أزهار الياسمين الأبيض الكبيرة من محل قريب لبيتها، أحملها لها بعد أن أضع عليها البطاقة التي كتب فيها

Twitter: @ketab_n

شيئاً وطواها، واستعملتها أنا فاصلة للقراءة في الكتاب دون أن أجد رغبة أو فضولاً بالاطلاع على ما خطه فيها. و لم أحرص على حفظ التفاصيل مما أراد مني أن أقوله لها، سأترك للقاء وللأحاديث عفويتها، فكل ما يريده هو أن تَرضى وتعود إليه.. لذا فإن كانت هي في داخلها تريد ذلك فليس هناك مدعاة للكثير من كلامي وكذلك الأمر فيما لو أنها قد قررت في نفسها هَجره.

إذاً سأكتفي بالتحدث في منحى عودتها بما يمليه علي عفو الحالة وسياقات الكلام. وكل ما علي فعله هو أن أحمل إليها باقة الياسمين وأدق على جرس بيتها على العنوان الذي كتبه لي.. ولست قلقاً ولا ثمة شعور بارتباك ما، فيما يتعلق بطبيعة تعاملي معها.. بل أشعر بثقة غريبة.. أو لا أدري.. كأننا نعرف بعضنا جيداً.. ربما بحكم رصيد فهمي الجيد للشخصية والثقافة الإسبانية عموماً.. أو تراه نوعاً من البرود والعادية إذا جاز القول، فالكثير ممن يعرفونني يصفوني بذلك، وأفكر أحياناً بأن الأمر يعود إلى تأثيرات عالية علي بشكل ما.

وفي كل الأحوال فأنا أعرف تماماً إلى أين اذهب في برشلونة التي أمضيت فيها أسبوعين من عطلة صيف العام الفائت فشدتني إليها بخليط الأعراق والبنايات المتعايشة على الرغم من فارق أعمار إنشائها، تلك البالغة القدم مع تلك البالغة الجِدة. ومهرجانية شارع الرامبلاس الذي يلذ لي التمشي فيه ذهاباً وإياباً، ليلاً ونهاراً، بين طرف يؤدي إلى البحر وطرف يؤدي إلى اكتظاظ وسط المدينة الحي، وأكثر ما يعجبني في برشلونة شيئان أرى أنهما من يمنح لهذه المدينة ساقين تقف عليهما هويتها المدهشة الجاذبة، وهما: البحر وبصمات عبقريها غاودي.. أمضيت أيامي هنا بينهما بلا ملل مأخوذاً بما يمكن

Twitter: @ketab_n

توصيفه بالاتساع والهائل والثري والكوني القائد إلى ملامسة الدفين من القلق الوجودي تحفيزاً أو مداعبة مُهدئة.. شيء ما، يشبه التعامل مع الطبيعة الشاسعة.. وكل منها يبدو وكأنه طبيعة عظيمة بحد ذاتها وليس كجزء منها.. لبرشلونة أيضاً روحية توحي لزائرها باستمرارية التاريخي المتنوع اللامنقطع، فيمنحك التداخل العائلي فيها واعتراف ما، بقوة الحياة وعظمتها وعذوبتها ومهرجانيتها.. ترى ما الذي يعجب أبي ببرشلونة؟.

وصلت في الساعة الرابعة مساءً، لم تكن معي إلا حقيبة الكتف الصغيرة التي اعتدت على حملها واضعاً فيها كتباً للقراءة ودفتراً وأوراقاً وأقلاماً ومناديل ورقية وعلب سجائر ومشطاً صغيراً.. لذا كنت أول النازلين من القطار، وتوجهت مباشرة إلى حمّامات المحطة، أفرغت بطني ومثانتي وأنفي فيها. غسلت يديّ ووجهي بماء بارد، وبللت رأسي ماسحاً على الرقبة، ثم أخرجت مشطي الصغير من جيب الحقيبة، صففت شعر رأسي وحاجبي وشاربي.. وخرجت شاعراً بالصحو والراحة. أخذت سيارة تاكسي متوجهاً إلى عنوان روسا.. لكنني هناك لم أطرق جرس باب بيتها وإنما توجهت حالاً إلى محل بيع الزهور الذي وجدته كما وصفه أبي. اشتريت باقة الياسمين واستللتُ البطاقة من بين إطباقَة صفحات الكتاب طالباً من البائعة الشابة ربطها بباقة الياسمين، ففعلت ذلك بخيط ملون أنيق.

خرجتُ بعدها إلى مقهى مجاور، اتصلت منه بروسا فأصابتها الدهشة وقالت بأنها ستأتي حالاً. حجزت لنا طاولة قرب نافذة، قرب نافورة زجاجية صغيرة شوّهت صفاء ماءها أضواء المصابيح الملونة المغروسة في حوضها. طلبت قهوة بالحليب.. أرتشفها وأدخن

Twitter: @ketab_n

محدقاً عبر النافذة إلى باب العمارة التي فيها شقة روسا.. حتى أطلت هي وقد ارتدت بدلة بيضاء مطرزة الياقة بشرائط زهرية اللون وفي ذراعها حقيبة تشبه سلة بحكم كونها مصنوعة من جريد نباتات مُجَففة.. هل هو القِنَّب أم سعف نخيل؟..

روسا طويلة ممتلئة يلتمع شعرها الأشقر تحت ضوء شمس المساء وهي تديره إلى الجهتين متفحصة مسيرة السيارات حتى اجتازت الشارع مهرولة مباشرة دون الذهاب إلى منطقة خطوط عبور المشاة. أقبَلت تسير على عجل يهتز صدرها العامر تحت بياض قميصها وقلادتين إحداهما فضية الخرز والأخرى بيضاء مصفرة بلون العِظام أو هي من عظام. من يراها لن يحسب بأنها قد اقتربت من الخمسين عاماً.. وها هو عطرها يسبقها بالدخول. حيّت عمال المقهى، وبدا واضحاً مدى تعارفهما، ثم بحثَت عني. رفعتُ ذراعي لها ملوحاً فأقبلت سريعة وتعانقنا.

ما إن جلست قبالتي تطفح منها البهجة وتعززها بالترديد: يا للمفاجأة.. يا لها من مفاجأة جميلة.

اقترب منها النادل وقال: كالعادة؟.

هزت رأسها له وواصَلت تعبيرها لي عن سرورها، فسارعتُ إلى دفع باقة الورد إليها، وكنت قد وضعتها على الكرسي المجاور لي فهتفَت: أووه.. يا للروعة.. شكراً يا سليم.

قلت لها: الشكر ليس لي وإنما لمن بعثها، صاحب البطاقة.

فراحت أصابعها تفض المغلف ثم البطاقة التي كانت بأكثر من طية، حين فتحتها صدر عنها عزف هادئ لموسيقى أغنية عيد الميلاد المعروفة: أووه.. فغداً عيد ميلادي. شهقت روسا وراحت تقرأ

Twitter: @ketab_n

بابتسامة مثقلة بمعاني الوله، و لم تنتبه إلى النادل الذي وضع أمامها قدحاً بالغ الارتفاع على الطريقة الألمانية ممتلئاً بالبيرة ثم انصرف بصمت، فيما أشعلتُ أنا سيجارة أخرى وارتشفت من قهوتي محدقاً في وجهها فشاهدت الدمع يسيل من عينيها بغزارة تاركة إياه يبلل ابتسامتها المتبدلة بين حالتي البكاء والفرح.. لحظتها يستحيل على من يراها أن يشك، ولو قليلاً، بعمق عشق هذه المرأة لنوح.

طوت البطاقة وضمتها إلى صدرها، تقبلها وتشهق، فسارعتُ بأن أدفع لها منديلاً أخرجته من حقيبتي. مسحت دمعها. ضحكَت بفم شده الانفعال وقالت:

ـ أبوك رجل مجنون.. وأنا الأخرى مجنونة لأنني أحبه بجنون.

ندمتُ لحظتها على كوني لم أقرأ ما كتبه لها في البطاقة. ولا أدري كيف نهضتُ واستدرتُ إلى الجهة الأخرى من الطاولة واحتضنتها جالسة، فبكت على رقبتي باتساع واهتزاز ومسرَّة، تركتها شادة إياي إليها لبرهة حتى هدأت، ثم قبَّلتُ جبهتها وأعنتها على مسح دمعها وعدت إلى مكاني.. قالت: شكراً لك يا سليم.

هدأت وارتشفَت من كأسها، شمَّت باقة الياسمين ووضعتها جوارها فوق الحقيبة واندلعت بالكلام:

ـ لم أحبب رجلاً كما أحببت أباك.. حين وجدته لم أجد في نفسي وقلبي أي حاجز يعيق دخوله.. شعرتُ بأنه هو الرجل الذي طالما انتظرته طويلاً.. هو بعينه.. هناك أشياء كثيرة مشتركة بيننا، مثلاً (ضاحكة) مسألة حبنا للألمان.. هل تعلم بأنني ومنذ طفولتي ينادونني في العائلة والمدرسة بالألمانية؟ لأنني أشبههم كثيراً.. شعري الأشقر هذا الذي تراه لونه حقيقي وليس مصبوغاً.. هيئتي الجثيثة

Twitter: @ketab_n

العريضة الكتفين.. وأنا راق لي الأمر مبكراً.. لذا درستُ الألمانية كلغة ثانية، ثم تابعتُ ذلك في معهد غوته. ومنذ صباي أكاد أسافر إلى ألمانيا سنوياً تقريباً.. حديثي الأول مع أبيك في مطعمه البغدادي بدأ من هذه النقطة أيضاً، فشعرت على الفور.. وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل، حيث كانت أولى كلماته لي: هل أنتِ ألمانية؟.. فأجبته بالألمانية بأن: لا، وإنما أنا إسبانية ويقال بأن إحدى جداتي هي من أصل ألماني. جلس من فوره إلى جواري ورحنا نتحدث بالألمانية وهو بين الجد والمزاح يصر على أنني ألمانية متخفية بجلد إسبانية.. تحدثنا عن فروقات الشعبين والثقافتين ثم عن غوته الذي نحبه معاً فأدهشني أنه راح يتلو من ذاكرته مقاطع طويلة من أشعاره. الفرق بين الألمانيات وبيني أنني امرأة ثرثارة أحب الكلام كثيراً على العكس منهن (تضحك وتعلق) أنا إسبانية تماماً بهذه الصفة كما تعلم، وهذا فقط، الذي لا يعجِب أبوك فيَّ.

هززتُ رأسي متذكراً شكواه من هذا الأمر حين تناولنا غداءنا بالأمس، حيث قال: بأن المشكلة الوحيدة أنها ثرثارة.. يا أخي.. تُصدع رأسي بالكلام الفارغ حتى ساعات متأخرة من الليل.. (وبتهكم) أحياناً أفكر بأن الدكتاتورية أرحم لرأسي من عذاب لغوها.. على الأقل فالدكتاتورية تردد العبارات التافهة الفضفاضة ذاتها.. لذا تصم أذنيك عنها وتستريح، لكن هذه، في المقهى والشارع والبيت والفراش على الوسادة نفسها تصب لغوها في فرْج أُم أذنيَّ تماماً.. يبتسم ويضيف: لكنها طيبة وصادقة وكريمة على أية حال.

روسا تواصل هذرها ساردة حياتها ومعلِّقة على كل فقرة؛ والدها كان تاجراً معروفاً للذهب في برشلونة، هي البنت الوحيدة

Twitter: @ketab_n

لوالديهـا، زوجها أرجنتيني وهو الآخر تاجر ذهب انفصـلت عنه بلا إنجاب وحملته السـبب في ذلك، لم أحبه لكنه كان رجل أعمال ممتاز اسـتطاع أن يواصـل إدارة تجارة أبي بعد موتـه.. لكنه عمليّ أكثر من اللازم وأنا رومانسـية. أشارت من النافذة إلى جهة بيتها وقالت: هذه العمارة ملكي والمحل الذي في وسط المدينة أجرته بمبلغ جيد. اشتريتُ أيضـاً، منذ ثلاثة أعوام، بيتاً صـغيراً جميلاً في ضـواحي برلين، كلما ضقتُ ذرعاً هنا أهرب إليه لشهر أو لشهرين.. إذا كنتُ ألمانية الشكل والثقافة فأبوك يشبههم في العناد.. (وضحكَت). نحن هنا نقول عن العنيد بأن رأسـه مربع.. تخيّل أنه هو المولع بألمانيا مثلي، كلما قلت له لنذهب للعيش هناك.. يرفض قائلاً: ليس الآن.. فيما بعد.. فيما بعد.

أصختُ إليها السمع أكثر، هذه المرة، بنية أن أعرف فيما إذا كانت على علم بهدفه الحقيقي من إصراره على البقاء في إسبانيا، وتحديداً في مدريد، أعني سر ميدالية مفاتيحه/الرصاصـة. وحين وجدتها تعبُر في حديثها إلى أمر آخر، سـألتها: ولا تعرفين السـبب؟. قالت: لا.. فقط يردد ليس الآن.. فيما بعد.. فيما بعد. إنه مجرد عناد.. ألم أقل لك بأن رأسـه مربّع.. ولكن.. هـا.. قلبه دائري.. إنه يخفي بين جوانحه قلباً هائل الطيبة والرحمة والحلاوة.

ـ هل أفهم من هذا بأنك ستقبلين وساطتي وتعودين إليه؟.

ضـحكَت ـ طبعاً.. بالتأكيد.. فأنا سأصـاب بالجنون أو أموت لو افترقنا.. سآخذ الطائرة هذه الليلة نفسها.. هل أحجز لك معي؟.

ـ لا.. أنا مُتعَب، سأبات الليلة هنا وغداً سأعود بالقطار.. أنا أحب القطارات.

ـ إذاً سأعطيك مفتاح بيتي.. أما أنا فلا أستطيع الانتظار حتى الغد.

Twitter: @ketab_n

تُواصل هي حديثها الذي اسمعه دون أن أعيه في داخلي، مكتفياً بهز الرأس، فقد كنت أفكر بالصيغة المناسبة التي سأسألها بها عن كيفية ممارسة الحب بينهما وأنا أعرف ما تم تعطيله في أبي، في تلك الأيام البعيدة من التعذيب الكهربائي في تكريت.. وأخيراً قررت المحاولة.

ـ لدي سؤال أتردد في طرحه ولكنني شديد الفضول لمعرفة الإجابة عليه..

ـ اسأل.. اسأل .. يا سليم.. أنت عزيز على قلبي ونحن صديقان.. أليس كذلك؟.

ـ نعم بالتأكيد.. ولكنه شخصي وخاص.. يمكنك ألا تجيبي عليه إذا شئتِ.

مدَّت كفها وربتت على كفي:ـ سليم.. يا سليم.. لا حواجز بيننا منذ الآن، ولك أن تثق باستيداعي أسرارك أيضاً إذا شئت.. ألم أحدثك أنا عن نفسي بلا تردد؟.

ـ نعم.. نعم.. هو مجرد تساؤل.. يعني.. مثلاً.. أستغرب من شدة غيرَتك عليه إلى هذا الحد و..

قاطعتني منتفضة:ـ كيف لا أغار عليه.. إنه حبيبي.. وهو اللعين مشاكس يجيد التعامل مع النساء.. لديه القدرة على الإيقاع بأكثرهن انغلاقاً.. أنا أعرفه جيداً وأعرف لسانه.. وأنت حتماً تعرفه.

لم أشأ أن أقول لها بأنني في الحقيقة لم أكن أعرف عنه ذلك أبداً، وإنما لاحظته مؤخراً هنا.. اكتشفته وأثار استغرابي ودهشتي فتصادمت تصوراتي عنه في رأسي. لم تُجب هي بما قالته على ما

Twitter: @ketab_n

أردتُ.. لكن الأمر يشجع بمواصلة المحاولة.. فقلت بشكل متردد أو بتردد مصطنع:

- لا.. يعني.. ولكن، عِديني بأن لا يعرف أبي بما سأسلك عنه.

رفعت الصليب الذهبي في قلادتها إلى فمها وقبَّلته قائلة: أقسم لك.. سليم.. يا سليم.. إن سرك في قبر.. ثق بي.

- يعني.. قصدي كرجل وامرأة.. كأي رجل وامرأة.. أنتِ وهو.. يعني.. قصدي في السرير..

فضحكَت ملقية بظهرها العريض على مسند الكرسي ثم عاودت الاقتراب وقالت بجدية:

- أووووه.. فهمتُ قصدك الآن.. فهمت قصدك.. اسمع، لأبيك أصابع مُذهلة يجيد العزف بها على كل آلات الجسد بمهارة تفوق أكبر العازفين.. يا إلهي.. لم أعرف المُتع واللذة التي عرفتها معه، مع أي رجل غيره أبداً.. له أساليب غريبة ومُدهشة كتوظيفه للتَمر مثلاً، ولا تسألني كيف، ولسانه أيضاً.. يا للسانه، وركبتيه وو..!. وكما تعلم فالمرأة، وخاصة الرومانسية مثلي، لا تبحث في الرجل عن مزيد من زوائد اللحم.. وإنما الذي يشدها إليه أشياء أخرى كثيرة، فالحب ليس هو لحظات الفراش القصيرة وحسب، وإنما هو مجموع تفاصيل كثيرة، ومنها مثلاً، صفة الرجولة في سلوكه وذهنيته وشخصيته، طريقة الكلام، نبرة الصوت، طبيعة النظرات، طبيعة اللمسات، أماكنها وتوقيتاتها.. الشعور إلى جانبه بالثقة والقوة والدفء، والـ..

وواصلَت الكلام عن الحب.. بحب.

Twitter: @ketab_n

- ١٤ -

ثمة أناس يلذ لهم العيش بصفة الانشغال الدائم، لذا فهم يتحدثون عن مشاريع كثيرة ليس بالضرورة أن تكون واقعية، ويرصفون الوعود والمواعيد والتعهدات المصاغة كلاماً ويعلقونها على رصيف زمنهم المؤجّل. البعض تراه مشغولاً فعلاً ومن لم يكن، فعلى الأقل يشعرهم المظهر الانشغالي بنوع من أهميتهم. ثمة أناس آخرون على العكس من هؤلاء - وأنا منهم - يفضلون أن تكون مفردات حياتهم واضحة ومحددة تسهل سيطرتهم عليها وإدارتها، لذا فإن أي شأن معلّق يشعرهم بأنهم معلّقون.. نوع من القلق يؤرقهم.. ربما من هنا جاءت عادتي في أن أنفرد بنفسي بعد كل كلام مهم أو حادث، أستعيده وأحلله كأنني أحاول ترتيبه ضمن ما أعتقد أنه مُرتب في حياتي، من هنا أيضاً ربما يأتي تفسير هربي من قريتي أيام تعفن الجثث، وشعوري بالاختناق لانعدام وسائلي في ترتيب كل تلك الحال المعقدة..

أسوق هذه المقدمة لأتحدث عن الأمر الأهم الذي بقي معلقاً ويؤرقني، ألا وهو هدف أبي في أن يغرز الرصاصة الأخيرة في مؤخرة الدبلوماسي الذي كان فتى متهوراً ذات يوم. لذا تُربكني ابتساماته وغمزاته الموحية لي ودائماً أفسرها كإشارة للسر الذي بيننا، يرعبني التفكير بقدوم اللحظة التي سيُفاتحني فيها بالأمر ويطلب مشاركتي.. بالتأكيد سأرفض، لكن المشكلة - المعلّقة بالنسبة لي - تكمن في كيفية

Twitter: @ketab_n

أن أثنيه عن تنفيذ هذا الأمر.. وخاصة أنني أعرف بأنه هدف أساسي لرحلته الغريبة هذه وغاية لكل هذا الذي يخطط له ويمثل ويعمل ويجامل ويحتمل.. إنه القَسم أمام جدي، الذي لن يشعر بالراحة أبداً ما لم يبر به.

ها أنا بعد مرور شهر، تقريباً، على عملي في المرقص، أجدني منسجماً وراضياً بل وملتذاً بهذا العمل، وربما للشعور بحيويته وتجدده عبر تجدد الناس وصبغته الاحتفالية أثر في ذلك، كذلك الشعور بحريتي بالحضور أو التأخر أو الغياب وبأنني صاحب عمل أكثر من كوني مجرد عامل مأمور. الأمر الآخر هو تطور علاقتي بفاطمة نحو مصيرها المتوقَّع، فقد أصبحنا حبيبين علناً بعد أن تصارحنا بما في الأذهان والقلوب والرغبات، الاحتكاكات اليومية في العمل قادتنا إلى احتكاكات أوسع امتدت إلى الشارع ومحيط القريبين إلينا وإلى البيت، فقد تكرر طلبها، حين تتأخر، أن تنام في بيتي حتى انتهيت إلى أن أمنحها نسخة من المفاتيح، وبدت جلية بصمات وجود المرأة في حياتي وفي بيتي. لقد انفتحنا على بعضنا بشكل كلي، تلامسنا وقبَّلنا بعضنا وتشاركنا النوم في سريري وفي اختيار الملابس والذهاب إلى السينما في أيام عطلنا الأسبوعية. أخبرَت هي أختها، التي سارعت أنا لمساعدتها في بعض الواجبات المدرسية، وأخبرتُ أنا أبي وروسا اللذين قالا إنهما يعرفان وباركا لنا.. كذلك عرف بالأمر زبائننا الدائمون والأصدقاء وجارتي الكوبية وبواب العمارة..

أعي تماماً بأن فاطمة ليست عالية ولا يُفترض بي المقارنة كي لا أجبرها على تلبس سلوكيات ليست من شخصيتها حقيقة، فلكل إنسان كيانه المختلف، وكنت دائم الانتباه مع نفسي للأمر.. ولكنني

Twitter: @ketab_n

لم أستطع بأن أقتلع قطعياً جذور عالية من روحي.. لذا لم أستطع أن ألغي كل المقارنات بينهما مع نفسي.. لفاطمة عينان واسعتان تبرز دوائر سوادهما جذابة وسط سطوع الأبيض، فيما لعالية عينان صغيرتان تخترقان روحي. لفاطمة شفتان إفريقيتان غليظتان وهما ضعف شفتي عالية الرفيعتين حجماً، لذا فهما حقل خصب لقطف القبلات الشهية.. الجميل في الأمر أنني تمكنت من إقناع فاطمة بأن نطلي، بين حين وآخر، أصابعنا وشفاهنا بالتمر وعسله ونمصهما غرقى في التقبيل.. لقد استغربت الأمر في بادئه لكنها راحت تعتاده.. بل وتستسيغ لذته الأمر الذي أشعرني بالراحة والكفاية والانتصار.. وكأني قد صرت أرى في هذا الأمر مسألة جوهرية للتطابق مع هويتي خاصة بعدما ألمحت به روسا عن أساليب يتبعها أبي مع التمر، فاستطعت، على ضوء ذلك ودهشتي، تفسير أوسع لوجود التمر في شقتهما في مدريد وتوفره في بيتها في برشلونة الذي بت فيه وحيداً.

كان مرتباً كأنه مكان سياحي، وحين رأيت النباتات وأصص الأزهار تملأ أرجاءه تذكرت بأن بيتي يخلو من أية نبتة، وقلت كيف ذلك وأنا من عائلة فلاحين فيما هي ابنة تاجر للذهب؟!.. لم أطِل بتأمل المسألة حينها مكتفياً بأول تبرير وجدته حين قلت: كلٌ يبحث عما ينقصه.. لكنني فكرت بأن أضع شيئاً من الخضرة مستقبلاً في بيتي الشيئي.. ذلك أن الذي استغرقني في قطار العودة هو التفكير بأصابع أبي وبالتمر والذي قادني إلى التساؤل عن إصرار جدي على توافر كيس تمر في بيتنا.. فهل كان جدي مثلنا هو الآخر؟.. وانتابني التفكير بأننا نحن الثلاثة نتشابه في أشياء كثيرة، ربما نحن في الأصل شخص واحد تعدد في أكثر من جسد وجيل، لكننا نختلف عن بعضنا في الكثير أيضاً!.. فهل هو نوع من محاولات الطبيعة البشرية للتكامل؟..

Twitter: @ketab_n

ومـا هذا المناخ الخاص في علاقتنا الذي تتخفى فيـه رغبة كل واحد منـا بتربيـة أو إعادة تربية الآخـر؟!.. ترى هل أن ما يتشـابه فينا أكثر مما يختلف؟.. هل نحن حقاً ثلاثة مستقلُّون في كينوناتنا عن بعضـنا تماماً؟.. حينها حمَّلتُ القطـار، وحمَلَني، طـوال الرحلة الكثير من الأسئلة حتى وصلنا و لم نصل إلى أجوبة.

حين هممت بممارسـة الحب مع فاطمـة ذات ليلة، اعتذرت قائلة بأنها تفضـل ألا يحدث ذلك إلا في حالة الـزواج.. سرني الأمر كثيراً لأن هـذا ما كنـت أتمناه وأريـده أصـلاً في داخلي.. ربمـا كنوع من المقاومـة حتى النهاية في عـدم الوقوع في الخطيئة التي زرع جدي في ضـميري حرائق الرعـب من عواقبها. فعبرت لها عـن موافقتي.. بل سـروري بذلك، وما كنت لأنوي فعله ـ مع شـديد الـتردد ـ إلا لظني بأنهـا قد ترتاب برجولتي وأن لمعيشـتها في الغـرب أعواماً تأثيراً على قناعاتها تجاه مسـألة كهذه.. فكشـفت لي بأنها لم تقـم بالأمر إلا مع زوجها السابق وهي الأخرى تحرص بمقاومة صعبة على عدم وقوعها في الخطيئة، لذا كنا نمارس كل شيء باستثناء المواقَعة.

أمـر آخر جعلها أقرب إلى عالمي الخاص، هو تذكيرها إياي بمواعيد الصلاة ومن ثم معاودتها لأدائها متقطعة في البداية ثم منتظمة. بالتأكيد حدثتُ فاطمة عن عالية كثيراً ودمعت عيناها حين رأت عيني تدمعان عند حديثي عن مشـهد غرقها فاحتضنتني بحنان فائق أتاح لي سكب بكائـي بارتياح، كما لم تبد أية غيرة مـن وجودها في ذاكرتي لاحقاً. وحين حدثتها عن الأشـعار التي كنت أكتبها لها ورد فعل عالية عليها ضـحكَت، ومن خلال توسـيع الكلام عن الشِـعر وإجاباتي عرفَت بأنني مازلت أكتب الشِعر، وعرفتُ أنا طبيعة رأيها فيه فوجدته حيادياً

Twitter: @ketab_n

تماماً.. أو هي في الحقيقة غير مهتمة به وإن قالت ـ مثل كل الناس ـ بأن الشعر يعجبها. تلت هي من الذاكرة أبياتاً من الشعر الكلاسيكي كانت قد حفظتها من أيام الدراسة و لم تحفظ أو تقرأ غيرها، فيما تكاد تحفظ كلمات كل الأغاني العربية والإسبانية. سألتني أن أريها شيئاً من شِعري، فحاولت الممانعة كي لا أضع شيئاً قد لا ننسجم فيه، لكنني انتهيت بالموافقة بعد التفكير بضرورة أن تعرف وتطلع على ما يهمني.

لا أدري أين وضعت ما أسميته قصائد.. لحظة سأبحث عنها، ربما تكون وسط أحد الكتب التي قرأتها قبل أربعة أعوام، ثمة صندوق يحتوي بعضها تحت سريري. تعالى الغبار وعطست، هذه واحدة.. هل أقرأها لك؟.. لا.. إني أخجل من ذلك.. لا.. أو نعم سأقرأها كنموذج، اسمعي، وطبعاً فالمقصودة هنا هي عالية، اسمعي:

أثمن من ضوء زنزانة

أعذب من تمر الصائم

شفتاها.. تمرتان

أصابعها فاكهة فريدة

وعيناها.. بلا قواميس.

مَرت على استحياء تُلغم الغيم بالنظرات

فلاحة أينعت في غفلة الساسة

حلمتاها على العشق حرام

مباحتان للماء ونسيم السطوح

ستأوي للغياب ولن تروها

Twitter: @ketab_n

أبداً.. أبداً.

كانت قد ابتسمت عند ذكري للتمر، وعند الانتهاء صفقَت بمرح وقالت أعجبتني، ثم سألت ببراءة: أهذا شِعر؟. أدركت لاحقاً بأنها لا تعرف بوجود شعر حديث بلا قافية، فاستغرقتُ بالكلام لها عن الشِعر الحديث مستشهداً بنماذج من قصائد السياب والأغنيات الريفية. إذاً فهي بشأن الشِعر تَفرق عن عالية.

ترسخت قناعتي تماماً بكون فاطمة هي المرأة المناسبة لمشاركتي بقية حياتي، وبوضوح أكثر بأن تكون زوجتي، فرحنا نتحدث بالأمر على هذا النحو ونخطط لإيجاد اللحظة المناسبة لمفاتحة أهالينا به.. ترى هل أن أبي، هو الآخر، يفكر بإيجاد اللحظة المناسبة لمفاتحتي بقرار اختياره للحظة تنفيذ هدفه؟!.. هذا وحده هو أكثر ما كان يربكني ويقلقني، فها أنا أجد حياتي مرتبة، أُدرك حدود مفرداتها المنظمة، وفق اعتقادي، بوضوح.. وخاصة ما يتعلق بالعمل والمرأة والغد الذي أكاد أراه منذ الآن.

أوشك أحياناً أن أفاتحه، أنا، بالأمر وأحوّل قلق انتظار اللحظة المناسبة لتكون بيدي، لكن الذي يستعصي علي هو إيجاد المدخل المناسب أو الآراء التي سأسوقها عليه بحيث تكون من القوة في حجتها قادرة على ثنيه عما عزم عليه.. وهكذا أتت، كما يحدث كثيراً في الحياة، تلك اللحظة لوحدها.. بلا اختيار أو قرار مني أو منه، وذلك عند زيارته الأولى لشقتي حين جاء قبيل الظهر لشؤون تتعلق بالعمل وبنيّة أن يرى بيتي الذي دعوته لزيارته لأكثر من مرة ـ كما زعم ـ. وأول ما هاله ـ كما حدث مع كل الزائرين لبيتي تقريباً ـ هو هذا المشهد الطاغي لصور العراق وهي تغطي سقف الصالة وجدرانها..

Twitter: @ketab_n

لكن الذي فاجأني هو الاختلاف برد فعله عمن سواه.. فبعد أن جال لأكثر من مرة محدقاً بها ومقترباً من بعضها لتدقيق النظر وإمعانه، نظر إليّ بتعابير محتبسة، نظرة طويلة.. كأنه يبحث خلالها عن التعبير الموفق عما يريد، وهكذا كان، فبعد أن صفقَ كفاً بكف، ثم عقد ذراعيه على صدره أمامي وهو ما يزال واقفاً، قال: ما هذا يا سليم؟؟!.. ونبرته المُدِينة أثَّرت على صيغة نبرة تساؤلي وأنا أنطق: ماذا؟!.

قال: كنتُ أظن بأنك أعقَل من هذا.. وألا تقع في الحنين المَرَضي الذي يقع فيه جل المغتربين حين يصورون لأنفسهم بأن كل شيء جميل في بلادهم التي غادروها..بما في ذلك الخرائب والمزابل..

قلت: إنه وطننا يا أبي.. إنه وطني.

حل عقدة ذراعيه ليستخدمهما بالتوضيح نافضاً إحداهما في الهواء: لا.. إن وطننا الحقيقي هو الذي نصوغه نحن بأنفسنا كما نريد.. لا كما صاغه غيرنا، كما فعل الطاغية.. إنه على هذا النحو ليس الوطن الذي نريده.. ولهذا هجرناه. الوطن مثل الحب يكون اختياراً وليس فرضاً.. وإذا كان لابد لك أن تضع صوراً للوطن فضع تلك التي تريدها أنت أو حتى تلك التي تصوغها بنفسك أنت.. لا.. لا..

كان يهز كفه تجاه الصور كمن يودعها، أو كمن يرفض شيئاً قدَّمَته له الجدران. دار حول نفسه ثم جلس على الكنبة زافراً وهو يواصل التعبير عن خيبته: لا.. لا.. كنت أظن بأنك أعقل مما أنت عليه..!.

استفزني قوله.. شعرت بأنه يهدّ مملكتي التي بنيتها ورتبتها بصبر مواظب على مدى أعوام، وأنا أكاد أخترع في وحدتي لكل صورة من هذه الصور حكاية وتاريخاً وعالماً بأكمله.. لقد أغاظني شطبه المتعالي

Twitter: @ketab_n

هـذا، بلحظة واحدة وبكل بسـاطة، لكل هذا الذي أقمته وعايشـته بقناعـة طوال أعوام غربتي العشرة هنا.. شـعرت وكأنه بقنبلة واحدة يقتل كل عائلتي التي كونتُها بجهد طويل وبمحبة وأحلام خاصة.. لذا أصابني ما أصابه من الصمت باحثاً عن الرد الشافي الذي يثأر لنفسي الجريحـة، زفرت أنا الآخر ووجدت نفسـي أرتعد. حرارة جسـدي تتصـاعد، ثم أسـارع للجلوس أمامه وأنظر في عينيه بتحد عاصـف وحال من القوة لم أعهد عليها ذاتي من قبل أبداً، لتخرج كلماتي على إثرها مختنقة، محتدة، صـادمة بهجوميتها: وأنا أيضـاً كنت أظن بأنك أعقل مما أنتَ عليه.

فاجأه قولي بالطبع فقال: كيف؟!.

ابتعـدتُ عنه قليلاً، رافعاً الكرسـي الذي أجلسـ عليه إلى الخلف ومنـزلاً إيـاه. قلـت: أن تفعـل كل هذا الـذي فعلته مـن أجل تحقيق هـدف متخلف وتافه ومجنون كوضـع رصاصـة في مؤخرة شـخص آخر. تخدع أمي وتهجر عائلتك، وتخدع روسـا وتستغلها، ثم هذا الانقلاب الراديكالي على كل إرثك الشخصي والأخلاقي والديني.. كل ذلك من أجل هدف سخيف!؟..

شـعرت بقوة وراحة بعد أن قلت ذلك، وخاصـة بعد أن لاحظت تمكني من إغاظته واسـتفزازه بالدرجة ذاتها، إن لم تكن تفوقها، تلك التي اسـتفزني بها. فقد اعتصر وجهه محمراً كأنني طعنته، مسح وجهه بكفيـه هـازاً رأسـه في راحتيه بهدف امتصـاص الصـدمة أو بهدف السـيطرة على أعصـابه ورد فعله، والدليل تغيّر نبرة صوته التي كانت واضحة في الشهادة على صعوبة التعقل المقصود.. إلى حد ما:

ـ.. أنـا لم أخـدع أحـداً، لا أمكَ التي أوضـحت لهـا كل الأمر،

Twitter: @ketab_n

كما سبق وأن أخبرتك، ولا روسا التي أنا أحبها فعلاً، كما أنني لم أنقلب على إرثي الأخلاقي والديني، كما تقول، وإنما على العكس من ذلك.. إنني بما أنوي فعله.. إنما أقوم بالتنفيذ الصميمي والجاد له.. وما كل هذا الذي أحرثُ بقسوة من أجله إلا لكي أبر بقَسم أقسمته على القرآن أمام كائن غائب إلى الأبد، فلو لم أكن ملتزماً بإرثي الأخلاقي فعلاً لما كان هناك شيء آخر يجبرني على البر بقَسم كهذا.

قلت بنبرة ما تزال هجومية: أي تخلف هذا، وأي جنون..! نحن الآن في عصر آخر وبلد آخر وثقافة أخرى، وأمر كالذي تهدف إلى فعله لن يفهمه أحد.. بل ويُعد جريمة خطيرة يحاسب عليها القانون.

نهض هائجاً فبدا بالمشهد المعتاد عند غضبه والذي أصفه بالمسرحي، ليس لتصنعه وإنما لحرارته، حيث يدور في المكان ويومئ بكل ما يتحرك من أعضاء جسده مهتزاً بكليته على إيقاع الكلمات التي تبدو وكأنها تُنتَزع انتزاعاً من أحشائه:

- وأين هو عصرك هذا.. وثقافته وقوانينه وهو يرانا نُذبح يومياً في بلدنا على مرأى منه.. بل وبدعم منه أحياناً!!.. ها.. أين.. ها..؟؟..

كان مُخيفاً حقاً وهو يدور حولي مثل ثور هائج، حول الكرسي، مما جعلني أنهض لأقف أمامه كأنما بفعل غريزي، فيما يواصل هو صراخه ويركل الحائط بقدمه.. وأنا على يقين من أنه لو كان في بيته هو لراح يحطم كل ما يجده أمامه.

- .. هاه؟.. أين هي حضارة وقوانين هذا العالم الحقير، الجايف، المنافق، النذل؟.. وهو يرانا نُساق كالخراف إلى المجزرة بلا ذنب.. ها؟.. نعم.. قُلها.. نعم.. قلها صراحة بأنك لا تريد مشاركتي بالأمر، وليكن بعلمك، فأنا لم أطلب منك ذلك، ولست بحاجة إليك فيه

Twitter: @ketab_n

و لم تكن في حسباني، وحسناً فعلت أنك قد كشفت عن نفسك قبل أن أُوهم نفسي بك أكثر.. ها.. قُلها.. صراحة إذاً.. أنتَ خائف.. رعديد.. مخنث.. أنت جبان.. خايس.. جايف..

عندها لا أدري كيف قربتُ وجهي إلى وجهه، فكنا كديكين منفوشين في حلبة صراع، وصرخت:

ـ أنا لست بجبان.. وإنما الفعل الجبان الحقيقي هو الذي تنوي فعله.. وهكذا فأنت الجـ..

صفعني على وجهي بكل جبروته حتى أسقطني أرضاً.. ثم غادر صافقاً الباب وراءه بعنف اهتز له كل المبنى.

Twitter: @ketab_n

-١٥-

حين جاءت فاطمة، في المساء، وجدتني غاطساً، بكل عُريي، في حوض الحمّام، فبعد أن صفعني أبي وصفع الباب خلفه، بقيت لبرهة ملقى على الأرضية منتحباً، وقد شل كفه وجهي، مددت ذراعي إلى أوطأ الصور وأقربها إليّ ورحت أنزعها عن الجدار وأمزقها فيما يهذر لساني بالسخط: لا أريد وطناً.. اللعنة عليه.. اللعنة على كل شيء.. فلم أعرف فيه وأحمل منه سوى الوجع، وطني إسبانيا.. لا.. ولا حتى إسبانيا.. لا أريد أي وطن.. لست بحاجة إلى أي وطن..

أحدق بالصور الممزقة بين يدي ثم أنشط بالبكاء، بانكسار حَنون:.. لكنه العراق.. العراق.. يا أبي.

أنهض على ركبتي محاولاً إعادة الصور الممزّقة إلى أماكنها. كان داخلي يموج بعواصف تحاور بعضها بصخب، فحملتني عاتية منها على قدمي مجنوناً ورحت أخرط كل الصور المعلقة وألقيها هشيماً. كفي تتحسس خدي الأيمن الذي كان وخزه يزداد ضراوة فأحمل نفسي داخلاً إلى غرفة النوم، ممزِقاً كل ما بقي هناك، ثم ملقياً بي على السرير ومتدثراً باللحاف كلياً. أتكور على نفسي، مثل جنين، بكل استطاعتي.. كأنني أحتضنني. أبكي هناك وأرتعد مثل طفل تلقى عقوبة لم تكن لتخطر على باله من والدين كانا يدللانه. أمواج

Twitter: @ketab_n

هذياني المتضـاربة معي تحت ظلمة اللحاف، تتبادلني بين شـتم لكل شيء وترديد عبارة أبي: هذا العالم جايف.. هذا العالم جايف..

قـررت ألا أرى أبي بعد اليـوم أبداً، أن أقاطعـه، أن ألغيه تماماً من حياتـي.. كأنه لم يكن، هو وعائلتـي والعالم وجدي.. آه جدي.. كم أنا الآن بحاجة إلى حنو أصـابعك الفائض علينا في أسرّة المرض! وأنا في سريـري الآن وحيـداً أتوجع يـا جَدي.. لكنك قد تنحـاز إلى أبي باعتباره يريد تنفيذ ما تريد، أو لمجرد أنه أبي وأنت المُردد بأنه لا يجوز قـول أُف للوالديـن ولا نهرهما. فمن لم يرض عنـه والداه لن يحظى برضـى الله.. آسـف يا أبي.. لقـد أخطأتُ بحقـك، تطاولتُ عليك ورفعت صـوتي بلا أدب.. كنت أستحق أكثر من صفعة واحدة منك إذاً.. اعذرني يا أبـي.. ولكنني غير مقتنع بما تريد فعله، حاولت ثنيك لأني أحبـك وأخاف عليك.. نعم أخاف.. ليس هذا لأنني جبان كما تعتقد، فخـوفي هذا من نوع آخـر.. هل تفهمه..؟ هـل تفهمني؟.. طـوال غربتي وأنـا أراك تُجلسـني، طفلاً، على ركبتيـك وقدماك في شـاطئ دجلة تقرأ لي قصـائد غوته، لماذا لا تكن أنـت الذي أحن إلى الالتصاق بظهره على ظهر حمارنا حين أوصله إلى الطريق العام..!.. لحظـات دافئة. كنت أشـعر عندها بأن قلبي الصـغير يعانق فيها قلبك من وراء أضـلاعي وأضـلاعك.. وحتى رائحة عـرق إبطيك كانت بالنسبة لي هي أزكى ما أشم.. كنا نُلوح لبعضنا وأظل أراقبك تبتعد.. أُلوّحُ.. وأُلوحُ حتى تختفي بك السـيارة نقطة سوداء في خط الشارع الأسود.. فهل صفعَتك لي اليوم هي تلويحة وداعنا الأخيرة؟!.

أمـواج داخلي تهـزني في الظلمة تحت اللحاف وأشـعر بأن عَرقي أمواج ترافقها أمواج من دفقات بكائي وأمواج من الألم المتصاعد في

Twitter: @ketab_n

وجهي. لا أعرف كم بقيت على هذه الحال، ثم نهضت متوجهاً إلى الحمّام فرأيت حمرة خدي الأيمن أقل مما توقعت لأنني كنت أتصوره ملطخاً بدمي. غسلته بالماء البارد فقلت: أحتاج إلى الماء.. الماء، الماء يا عالية.

ملأت حوض الحمام، ألقيت بكل ثيابي على الأرض وتمددت في الماء مسنداً رأسي على الحافة، غاطساً حتى رقبتي، حتى أذني.. علّي لا أسمع شيئاً، علّي لا أسمع نفسي ولا صدى صفع أبي لنا أنا وباب بيتي.. غاطساً حتى أُذنيّ.. حتى ذقني.. حتى اختناقي.. حتى جاءت فاطمة وهوت عليّ بقلب كسير: ـ سليم حبيبي.. ما بك!؟.. ماذا حدث!؟.

قرفَصَت جوار الحوض وتناولت رأسي تلزه على صدرها.. مثل أمي، مثل عالية، مثل جدي في لحظات حنانه.. وربما بكيت أيضاً. أنهضتني بعاطفتها وتناولتني بالروب المنشفة برفق محتضنة إياي.. تماماً كما كانت أمي تتلقفني من طشت الغسيل بعد أن تسبحني وهي تترنم لي بأغاني الحصاد والشاي والمطر: « مطر مطر يا عالي.. أطل شَعر رأسي. رأسي يا رأسي العالي.. أمطر على الناسِ». تأخذني مبتهجة وتشمني كتفاحة ناضجة، تقبلني وتقول: الله ما أحلى سلُومي.. حبيبي نظيف.. حبيبي نظيف. وتقول فاطمة تعال إلى السرير يا حبيبي. مددتني هناك، تحت اللحاف ثانية، وهي تصفف لي شعر جبهتي الندي مُبعِدة إياه عن عيني بأصابع كالريش وتُقبلني وسط الجبين وعلى أنفي، فأقود أصابعها إلى صفحة خدي الأيمن علّ وخزه يهدأ، علّ أحمَره قد انجلى، وربما هو كذلك لأنها لم تسألني عنه، أم تراها تصورته بسبب استنادي عليه على حافة الحوض!.. فهي لم

Twitter: @ketab_n

تسألني عنه واكتفت بتكرار السؤال: ماذا حدث؟!. وأنا أردد أن لا شيء.. لا شيء.

فتواصل هي الاستدراج: وجدتُ المرقص مغلقاً، وحين ناديت على بيت أبيك خرجت لي روسا وقادتني بعيداً عن الباب هامسة بأن شيئاً قد حدث بينكما، أعني أنت ووالدك السيد نوح.. وقالت أنه ممدد في فراشه يشرب ويدخن ويرتجف.. إنه في حال سيئ. و لم تخبرني بأكثر من أن شيئاً قد حدث بينكما، وبأننا لن نفتح المرقص اليوم للعمل.. واذهبي يا فاطمة لتكوني إلى جانب سليم.. ماذا حدث يا سليم؟.. ولماذا كل الصور ممزقة هكذا؟.. وأنت ترتجف..

ـ لا شيء.. لا شيء.. أو .. نعم.. لقد أخطأتُ بحق أبي.. رفعت صوتي عليه وأسأت أدبي.. هل تعرفين يا فاطمة بأن أبي لم ينظر في وجه جدي على الإطلاق.. على الإطلاق.. كان يحترمه ويجله كما يجب.. أما أنا.. أما أنا..

ـ اهدأ يا حبيبي.. كل شيء سيُصلح.. اهدأ وكل شيء سيكون على ما يرام..

ـ لا.. إلا أنا فلن أكون على ما يرام أبداً.

ـ اهدأ الآن.. اهدأ الآن، سأعد لك شاياً أخضر.

على مدى يومين لم أخرج من البيت. فاطمة ترعاني كأنني مريض. أعانتني في تحقيق رغبتي بخلع كل الصور، ولملَمت ما تفتت منها في علبة واحدة. أحياناً تداعب شفتي بأصابعها وتمازحني بغنج مقصود: أتريد تمراً؟. تغيب أطول حين تذهب لتجلب لي علب الدخان أو للتسوق أو لزيارة أختها. علمتُ فيما بعد أنها كانت تلتقي بروسا،

Twitter: @ketab_n

فهي لا تتحدث معها في الهاتف إلا بكلمات قليلة وأكثرها تِرداد كلمة: نعم.. نعم.. أوكي.

حتى جاءت إليّ روسا صباح يوم جمعة كانت فاطمة قد غادرَتني فيه بحجة أن أختها تحتاجها اليوم وبأن عليها إنجاز بعض الشؤون المنزلية الأخرى كغسل الملابس وكنس البيت والتسوق، قائلة إنها ستعود في المساء.. وطعامك جاهز في الثلاجة.

احتضنتني روسا وبكت متوسلة: أرجوك يا سليم.. تعال معي لرؤية والدك.. إنه يقتل نفسه هكذا.. لا يأكل.. فقط يشرب الكحول ويدخن، ينام أحياناً مرتعشاً هاذياً في الفراش وصافعاً رأسه بقبضتيه، يضرب الحائط بقدميه وكفيه ورأسه، وبرأسه يطرق حديد السرير.. إنه يحطم كل شيء.. إنه يحطم نفسه.. إنه يتعذب يا سليم. لقد قبِلتُ أنا وساطتكَ بيننا.. أتذكُر؟.. فتَقَبل وساطتي بينكما.. أرجوك.. إنه يقتل نفسه لو استمر على هذه الحال.. إنه يعذب نفسه لأنه صفعك ولا يخبرني بحقيقة ما حدث.. فقط يصفع نفسه في كل لحظة ويقول: لقد صفعتُ سليم يا روسا.. أنا حيوان.. أنا حيوان.. أرجوك يا سليم تعال معي.. لأنه سيقتل نفسه هكذا، ولو حدث له مكروه فسأموت أنا الأخرى.. أرجوك..

رافقتُها مزوّداً بعلبتين من الدخان واضطراب هادر بدقات القلب. فتحَت لي الباب بحذر وهمَست:

ـ ادخل أنت وسأبقى أنا هنا.

رأيت أبي مستلقياً على الكنبة في عتمة الصالة. منفوش الشَعر. ذراع تتدلى في الفراغ حاملة قنينة ومن اليد الأخرى يمتص سيجارة. وما أن رآني حتى هب إليّ معانقاً. بكينا في رقاب بعضنا وكل منا يطلب الصفح

Twitter: @ketab_n

من الآخر. هو يقول بأنه أب فاشل وأنا أقول بأنني ابن عاق. سامحني.. سامحني أرجوك. وحين فككنا عناقنا وجدته يمد إلي بخده الأيمن قائلاً: اصفعني.. اصفعني. لا يا أبي.. لا يا أبي. فأقبل خده وأحتضنه من جديد.

بدا لي أكثر هزالاً، متعباً ومهزوماً على نحو لم أر فيه كل هذا الضعف من قبل. حين هدأنا على الكنبة متجاورين تحيط بنا الزجاجات الفارغة وأمامنا على الطاولة منفضة فائضة بأعقاب السجائر. شَعرنا بتوحدنا أكثر من أية لحظة أخرى، وشعرنا بوحدتنا وبغربتنا الحقيقية في هذا العالم (الجايف) أكثر من أية لحظة أخرى. وبعد أن سادت هدأتنا، فكرت لو أنني كنت قد استثمرت الموقف واشترطت عليه، لأسامحه، أن يتخلى عن عزمه على تنفيذ غايته. لكنني رضيت بالأمر لأنني أنا من كان يحتاج إلى الصفح منه، ومن ثم كي لا أثير هذا الموضوع مرة أخرى. لكنني وجدت نفسي، خلال حديثنا اللاحق، أشير إلى رغبتي بشكل آخر أكثر ليونة وحيادية مصطنعة. وكان هو الذي لامس الموضوع، حين كشف عن حقيقة ضعفه المخفي أو بالأحرى قوته التي أعرفها، فقد كشف لي عن التصارع في داخله حول هذه القضية، فهو، كما يقول، بين نارين إحداهما ما أسميته أنا، سابقاً، بإرثه الأخلاقي والديني، وأنا أعرف عمق قَسمه على القرآن وكبر معناه أمام هيبة جدي، ومعنى الثأر وجديّته حد القداسة في عُرفنا الاجتماعي، والنار الأخرى هي قناعاته الخاصة التي تتفق مع ذاته ومعي، في أنه، في الحقيقة، رافض للعنف وثقافة الثأر ولا يستسيغ التعصب. «صدقني يا سليم.. أنا وإن ظهرت بجلد ذئب لكن لي قلب حمل وديع».. يقول بأنه لو نفذ غايته سيندم ويتعذب وإن لم ينفذها سيندم ويتعذب..

Twitter: @ketab_n

ـ لن تندم يا أبي ولن تتعذب.. صدقني.

ـ لكنني قد أقسمت على القرآن، يا سليم، وعاهدت أبي؟!.

ـ «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم».

ـ لم يكن لغواً.. كنت صادقاً وجاداً في قَسمي.

ـ إنه تأثير اللحظة، فقد كان للأمر لحظته الخاصة المشحونة بالغضب وتغييب العقل.. الله كبير وهو عالم بذلك وبكل شيء، وجدي سيفهم الأمر حين تكون الأشياء أكثر وضوحاً وجلاءً في العالم الآخر.

كنتُ أعزز دعم كلامي بما أذكر من القرآن وأحاديث النبي، وخاصة حين لاحظت يسر تقبل أبي لها أو ربما لأنه، في الأصل، يريد التبرير من هذا الباب تحديداً.

ـ «وإن عاقبتُم فعاقِبوا بمثل ما عُوقِبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»..

ـ وآزاد.. ماذا سأقول لأخي آزاد؟.

ـ قل له أي شيء.. بأنك قد نفذت الأمر.. أو أن الشخص المقصود لم يكن هو.. أو أنه قد انتقل إلى بلد آخر، إلى جهة مجهولة، إلى جهنم.. أو مات.. أو أي شيء.. أو أخبره بحقيقة قناعتك الجديدة.. بل، وحتى حاول إقناعه بالكف عن سلسلة انتقاماته وثأره.. فمبدأ العين بالعين مرير يا أبي.. صحيح أننا نحن الذين سننناه ولكن تجارب الإنسانية اللاحقة توصلت إلى أن تطبيقه سيجعلنا، في النهاية، كُلنا عميان.

ـ الأمر ليس بهذه البساطة يا سليم، فقد راكمتُ حقدي على هذا الشخص طوال هذه الأعوام.. فكيف سيمكنني التخلص من ذلك في لحظة؟!.

Twitter: @ketab_n

صمتُ قليلاً بعد أن كنت قد شعرت بتدفق الكلام على لساني ومرونة الحكمة، إذا جاز لي أن أصف ذلك على هذا النحو.. أو إذا جاز لي أن أسم نفسي بذلك!.

ـ للتنفيس عن نفسك أرى بأن تتصل به الآن هاتفياً وتلقي على مسامعه بكل ما تريد.

ونهضت متناولاً دليل الهواتف مقلباً صفحاته الصفراء، فيما كان هو ساهماً لا يبعد السيجارة عن فمه. غمامة دخانها تلف وجهه.. حتى سمعته يقول: عندي رقم الهاتف واسمه. واستل من جيبه دفتراً صغيراً لأرقام الهواتف والعناوين. فتحه، ثم دفعه إليّ مشيراً بإصبعه إلى الرقم والاسم، ودون أن أنظر إلى وجهه، رحت أدير قرص الهاتف، وحين جاءني صوت امرأة، طلبت منها أن توصلني بالشخص المعني.. لأمر هام رجاءً. قالت: لحظة من فضلك. دفعتُ بالسماعة إلى أبي ورحت أراقبه.

كانت كفه ترتجف وشفتاه تختلجان. وبعد لحظات انتظار قصيرة، انفجر بصوت عال ومخنوق:

ـ لماذا؟..

ثم سرعان ما تدفق الصراخ الرهيب حد قشعريرة الجسد..

ـ لماذا؟.. لماذا فعلتُم بنا كل هذا يا مجرمون.. يا حقراء.. يا خنازير.. يا أبناء الزنى.. يا..

وسمعت جلبة إغلاق الطرف الآخر لسماعة هاتفه ليتصل بعدها الطنينيين، فيما أبي يواصل صراخه: لماذا؟.. لماذا؟.. هويتُ عليه محتضناً، فأجهش بالبكاء شاخراً كثور ذبيح، ودخلت روسا هلِعة

Twitter: @ketab_n

باندفاع. احتضنتنا معاً متسائلة: ماذا حدث؟ ماذا حدث؟. ثم سارعت إلى المطبخ عائدة بجرة ماء تغسل به وجه أبي وتسقيه.

بعد وقت، لا أستطيع تقديره، من هذا الاحتدام الذي لم أعرف مثله في حياتي، وأشك بأنني سأشهد مثله ثانية، هدأ أبي أكثر مما توقعناه.. كمن تقيأ طعاماً مسموماً كان يزعجه، كأن الـ(لماذا؟) هي الآفة التي كانت تأكل جوانحه، وراحت صفرة وجهه تتلاشى بالتدريج.. عندها قلت له:

ـ ما رأيك أن نذهب اليوم معاً إلى المسجد ونصلي الجمعة؟.

قرأتُ في ملامحه ارتياحاً وهو يومئ لي بالموافقة..

ـ إذاً سأذهب أنا الآن إلى بيتي ريثما تغتسل أنت وتأكل شيئاً وسآتي لمرافقتك.

قبلّته وخرجتُ تشيعني نظرات روسا بالشكر والأسئلة، وهي ما تزال تطوق رقبته بذراعها وفي الأخرى جرة الماء.

Twitter: @ketab_n

-١٦-

بعد خروجنا من المسجد إثر صلاة الجمعة الماضية، صافحني أبي وقال: تقبّل الله صلاتك.. شكراً لك يا سليم. صمت قليلاً، ثم أضاف: ما كنتُ أتوقع هنا وجود هذا العدد الكبير من المسلمين وهذا المسجد الجميل. كان هادئاً كأن قلبه من ماء رائق، وهالة الرضى الروحي تجلله بوضوح. شعرتُ عندها بأنني قد استعدت أبي واجداً فيه الكثير من صورته القديمة.. لذا قررت عدم مواصلة الحفر فيما يكتم.. سأكف تماماً عن تساؤلاتي.. سأنساها.. أو الأدق؛ سأتناسها وخاصة ذلك المتعلق بطبيعة موت جدي. ولن أسأله فيما إذا كان قد تخلى عن هدف البر بقَسَمه، أم أنه أجله، وحسب، وسينفذه دون علمي.

أعززُ هذا القناعة، ولو من باب التبرير أيضاً، بما قاله خطيب الجمعة: يا إخواني.. إن الله يقول: «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم».. فليس من المفترض بنا أن نعرف كل شيء، وإذا كان في المعرفة راحة أحياناً، فإن في الجهل والنسيان، أحياناً، راحة قد تفوق راحة المعرفة.

أشعر بارتياح ما، وأنا أستعيد، في الأيام الأخيرة، إحساسي بكون مفردات حياتي عادت لتكون مرتبة. صبغتُ جدران صالة بيتي مغطياً ثقوب المسامير بالأبيض. أبي صبغ شَعره بالأسود. فاطمة تقول إن أهلها وافقوا على زواجها مني، بقي أن نخبر أباك. أبي وروسا بكامل

Twitter: @ketab_n

أناقتهما يجلسان بانسجام أمامنا على الطرف الآخر من دكة البار بعد أن تأكدا من جاهزية كل شيء للعمل، لسهرة الليلة. يقول لي: شَعرك قد طال.. هل تريد أن أحلقه لك مرة أخرى؟ ويضحك. لا يكف عن الشرب والدخان لكنه، ولأكثر من مرة، أبدى نيته بتقليلهما.

أذكر أنه قبل يومين قال لي: أرى أن نحاول الذهاب إلى المسجد في كل جمعة. رفع الكأس التي في يده وأضاف مبتسماً: على الأقل كي نقلل من ذنوبنا. الوقت مساء وكنا نحن الأربعة فقط في المرقص لأن العاملتين الإسبانيتين لم تأتيا بعد. أبي وروسا يتهامسان ببهجة، وفاطمة تهمس لي: هيا أخبره.

ـ أبي، روسا. أنا وفاطمة نريد أن نخبركما بشيء.

ـ ونحن أيضاً لدينا مفاجأة لكما.

ـ ما هي؟.

ـ لا.. قولا أنتما أولاً.

ـ فاطمة وأنا قررنا أن نتزوج.

نهضا معاً عن مقعديهما هاتفين فرحاً بكلمات التهنئة وراحا يأخذان رأسينا، من خلف الدكة، بالتقبيل. ثم أمرانا أن نصب لنا شيئاً نشربه وشرعنا بقرع كؤوسنا على طريقة تبادل الأنخاب الاحتفالية. سنقيم لكما هنا حفلة هائلة. ووسط هرج الابتهاج سألَت روسا، كأي امرأة، أو بنوع من إضفاء المزيد من الحميمية العائلية وإشاعة طول الآمال: وماذا ستسميان أبناءكما.. يعني مثلاً إذا كان المولود بنتاً. أو ربما قالت ذلك لأنها قد وجدت فينا نوعاً من تحقيق، تعويضي، لحلم أمومة لم تُحققه.

Twitter: @ketab_n

قالت فاطمة وهي ترمقني بمغزى: أنا أعرف. وقال أبي: وأنا أعرف أيضاً. فسألته فاطمة: ماذا؟. نظر إلي أبي وقال: عالية. فقفزت فاطمة مصفقة له: صحيح.. صحيح. وقارعنا كؤوسنا مرة أخرى ليختلط رنينها بضحكاتنا. وبعد الهدأة قالت روسا: أما إذا كان ولداً فأنا أقترح أن تسمياه نوح. وكفها تمسد رأس أبي من الخلف، لكنه بادر بنبرة أراد منها الإيحاء بالسخرية: لا.. هذا فأل سيئ فما ذنب المسكين الصغير كي نُحمله مصائبي. ثم وسع من ابتسامته وحدق بي موقناً من قوة سخريته هذه المرة حين قال: سنسميه صراط. فصفقنا أنا وهو كفينا ببعضهما، كصبيين، منفجرين بضحك عال وسط دهشة امرأتينا، ووجدتني أنساق مع حميّة الضحك لأزيده بتعليقي: ولكن صراط بنقطة أو بدون نقطة؟. تصافعت كفانا ثانية وارتد أبي من شدة ضحكه.. إلى أن عاود هدوءه ثم اقترب، فقلت بجدية حقيقية: سنسميه مطلق. فصافحني أبي وقال: نعم هذا جيد.

وسألت فاطمة:ـ والآن ما هي مفاجأتكما؟.

نظرت روسا إلى أبي قائلة: أأقول أنا أم تقول أنت؟. ثم قالت دون انتظار: قررنا الذهاب إلى ألمانيا وأن نترك المرقص وشقتنا لكما إن أردتماهما.. وأضافت باسمة: على أن تدفعا أنتما إيجارهما طبعاً. وأضاف أبي: هناك سنبحث أيضاً عن أصدقائي من أيام النفط في كركوك؛ كريستوف وزوجته سابينه.

العاملتان الإسبانيتان دخلتا قبيل حلول الظلام، في موعدهما المعتاد، وبالطبع تم الكشف لهما عن أسباب هذا المناخ الاحتفالي (وهاتك يا بوس). هذه المسرة التي يبديها البعض بمشاركة الآخرين فرحهم، أو يتعاطف شخص مع هموم آخر.. دائماً تمس في صدري

Twitter: @ketab_n

وتـراً عاطفياً من الانفعـال تدمع معه عيناي أحيانـاً، مثلما يحدث لي عند مشـاهدة مواقف من هذا النوع في الأفلام. أعرف أن مشاركات من هذا النوع بديهية وقديمة بقدم إنسـانية الإنسـان.. لكنها، بالنسبة لي، دائمـاً جديدة، فأنفعل فرحاً بالطيبة والخير مثلما أنفعل توجعاً من الشر.

ومـع حلول الظـلام في الخـارج واشـتعال أنوار أعمدة شـوارع المدينة، كان بعض الزبائن الدائمين قد وصـلوا مبكرين وهم يستبقون بدء الرقص بأن يطلبوا شـيئاً بسـيطاً يأكلونـه إلى جانب ما يشربون.. كنوع من التهيئة والاسـتعداد للتمتع بالسهرة من أولها وإلى أن تصبح أجسادهم عاجزة عن المزيد من المقاومة.

كلما تزايد العدد تزايد معه الصـخب والدخان. ولاحظت كذلك تزايـد ما يشربـه أبي ويدخنه، وهو يقول لنا كلمـا اقترب لطلب كأس جديـد: لا بأس.. لا بأس.. مرة واحدة لا تضر.. وهذه الليلة خاصـة تليق بالاحتفال بها إلى أقصى حد.

فضلّت تصـديقه بدلاً عن معاودة هواجسـي بالانشغال مجدداً في محاولات تفسـير سلوكياته ومحاكمتها، وقلت لنفسـي؛ علي أن أتعلم تقبُله كما هو بكل تناقضاته ـ فمن ذا الذي لا ينطوي على تناقضات؟.. لا أحد. ـ وليس لي أن أواصـل فرض، على ذهني وعليه، صورته التي أريد.

وكالعادة حين يرى المكان قد ازدحم، وبعد أن يأخذ أعضاء الفرقة الموسـيقية مواقعهم، صـعد إلى الدكة المسرح، خالعـاً الميكروفون من عصاه ومقرباً إياه إلى فمه، حيث يفتتح السهرات بـ (مونولوج/خليط من لغات) فقرات من الكوميديا والمزاح وكلمات التسخين التي تبث

Twitter: @ketab_n

الحيوية في الجميع، متخذاً في كل سهرة شخصية مختلفة ليمثلها: سائق تكسي، مطرب مشهور، جندي، امرأة ثرثارة، بائع خضراوات، لاعب كرة قدم، طبيب.. وغيرها. صعدت روسا إلى جواره كي تترجم عند الضرورة. كان هذه الليلة أكثر مرحاً وخفة وابتهاجاً وتمثيلاً من أية ليلة سبقتها. واكتشفتُ، وأنا أراه مرتفعاً تتسلط عليه الأضواء، بأن أبي بالغ الوسامة والثقة بالنفس والقوة ناضحاً بالحياة.

بدأ بنبرة صوت مُفخَّمَة عن قصد وقال: .. مساء الخير، سيداتي آنساتي سادتي، طابت ليلتكم.. يا شعبي العظيم. فاشتعلوا كالعادة بدفقة من التصفيق والصفير وأحدهم يصيح: عاش الملك. فيما يرد عليه البقية: عاش، عاش. ويضحكون.

تنحنحَ هو بعدها كمن ينظف حنجرته، ومثَّلَ بأنه يعدّل ربطة عنقه وهو بدونها (ضحكٌ) ويبدو أن تقديمه اليوم سيتقمص فيه ساخراً هيئة ملك، أو الخطباء السياسيين، وهذا ما بدا مما قاله ومما تلبسه من هيئة وملامح وصوت حتى الآن.

آمركم اليوم بأن تفكوا الأحزمة عن البطون فلدينا الفائض من الشراب، ونحن بحاجة إلى نفط جيوبكم. وآمركم بالرقص حتى تتقطع مَشَدّات سراويلكم الداخلية، فلدي لكم الليلة أخبار عظيمة: وليّ عهدي، الأمير سليم سيتزوج من الأميرة فاطمة. الجميع يلتفت إلينا (بالتصفيق والصفير والتهنئة). أما جلالتي والملكة روسا فسوف ننتقل إلى ألمانيا العظيمة. وسيبقى وليّ عهدي ليقوم مقامي، لذا أحذركم من أن يتجرأ أحد منكم على إزعاجه، لأنني سأجيء طائراً وعندها سيعرف ما الذي سأفعله به.

صاح أحدهم: ماذا ستفعل؟. فأجابه على الفور: سأدعوه لتناول

Twitter: @ketab_n

ما يشـاء على حسابي. (ضحك، تصفيق). يواصـل أبي خطابه مُجيداً الإيحاء بين ما يريد إيصـاله جاداً وبين ما يقصـد به الإضحاك. وكان يكـثر من تكـرار كلمة (عظيـم). فاطمة إلى جواري متـوردة الخدين بابتسـامتها الدائمة التي كانت هذه الليلة أكثر اتسـاعاً وعذوبة. وهي تـكاد ترتفع عن الأرض بخفة تحركها، تجيب للزبائـن طلباتهم وترد علـى تهنئاتهم. أُخبِرها بـأني أفكر بتغيير عمل هـذا المكان لاحقاً من مرقصـ إلى مطعم عربي مثلاً. توافقني وتقول بأنها سـتطبخ وجبات مدهشة.. سـأجعل الزبائن يقبِلون على الكسـكس بالطوابير. فأنا لا أجيد المواءمة بين كل هؤلاء المتناقضـين.. لا أجيـد إدارة المرقص مثل أبي يا فاطمة.

وأبـي يقـول في الميكرفـون: أود أن أشـكر الجميـع على حسـن استضـافتهم لنا في اغترابنا، وأعلمكم بأن الأصنام في العراق ستسقط حتمـاً. أقـول الأصـنام ولا أعني التماثيـل. عندها سـنعود لنعيد بناء قريتنا الجميلة، لتكون أرضـاً للسـائحين لا للقبور، وسـوف نسميها (الأحرار، أو المطلق، أو الكرامة)، اللهم أدم علينا حبنا للحرية وكرامة ابـن آدم، وأمِتنا كما تريد أو كما نريـد لا كما يريدون.. قولوا آمين.. فـدوى الحشـد(آميين).. والجميع مدعوون ليكونوا ضـيوفاً علينا.. ولكن.. هـا.. لن نفتح فيها مرقصـاً بالطبع. هتفت إحداهن به: فماذا ستفتح للضيوف إذاً؟. أجابها: سأفتح لهم ساقيكِ. (ضحك، تصفيق وصفير).

أُخـبِرُ فاطمة بـأني أفكر بأن نجلب جارتي الكوبيـة للعمل معنا في مطعمنـا القـادم.. وأقول لها بـأني أفكـر أن نأخذ شـقتهما لأن فيها غرفتين وهكذا يمكن لأختك أن تعيش معنا أيضاً.. كما أننا سنحتاجها

Twitter: @ketab_n

للأطفال.. وسوف نـ.. وضعت فاطمة إصبعها على شفتي بمحبة، قاطعةً بذلك سلسلة ما أبوح لها به مما أفكر أن نفعله مستقبلاً.. وكأني كنت أجاري أبي في خطابه عن المستقبل. وقالت: إششش.. سنواصل الحياة يا سليم.. سنواصل الحياة.. ودعنا الآن نستمتع بهذا المسرح.

بعد ثلاثة أيام، سلَّمَني أبي المفاتيح.. بلا رصاصة.

بعد ثلاثة أيام أخرى، غادَر أبي وروسا إلى ألمانيا.

بعد ثلاثة أيام أخرى، علمتُ بأن ذلك الدبلوماسي قد نُقل إلى السفارة العراقية في برلين منذ أسبوع.

!!!

Twitter: @ketab_n

حظيت هذه الرواية باهتمام نقدي عربي وغربي جاد منذ صدورها باللغة الإسبانية أولاً في مدريد، ثم ترشحت طبعتها العربية ضمن القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) سنة 2010. وتُرجمت إلى الإنكليزية والإيطالية والبرتغالية. تدور أحداثها بين العراق وإسبانيا وتتناول جوانباً من تحولات المجتمع العراقي على مدى ثلاثة أجيال، فتتطرق إلى ثنائيات ومواضيع شتى كالحب والحرب والدكتاتورية والحرية والهجرة والتقاليد والحداثة والشرق والغرب.. وغيرها. وقد وصفها الشاعر والناقد الأسباني مانويل رينا في مقال له عنها في صحيفة الآ بي ثي بأنها: «رواية مشحونة بالعاطفة، بديعة باستحضاراتها وحنانها وتمتاز بقدرة كبيرة على رسم التناقضات ونقاط الاختلاف والتلاقي بين ثقافات الغرب والشرق.. إنها بحق هدية للفكر والحواس». وقال عنها الفنان التشكيلي آنخيل باسكوال بأنها: «من الكتب المتميزة التي تشدك منذ صفحتها الأولى فلا تتركها حتى النهاية، وتحملنا بين أجواء عراق طفولة الكاتب وإسبانيا اليوم. وفي رأيي فإنها تتميز بالكثافة الشديدة والحساسية وجودة النوعية الأدبية.. مما يجعل من قراءتها تجربة عذبة ومثرية. بينما اعتبر الملحق الثقافي لصحيفة (الموندو) محسن الرملي بأنه واحد من أهم الأصوات في النثر العراقي المعاصر.

ISBN 978-284308999-5

لوحة الغلاف: قحطان الأمين